صاحبها ومحررها
سلامة موسى
المجلد السادس



العدد الحادى عشر
من
السنة الخامسة

نوفمبر ١٩٣٦

سير الحوادث

تعرض المعاهدة على البرلمان فى أوائل شهر نوفمبر . وليس هناك أدنى شك فى أن البرلمان بمجلسيه سيصدق عليها مع الشكر للمجهود العظيم الذى بذله المفاوضون المصريون . وليست هناك معارضة يؤبه بها . لأن المعارضين لا يعارضون المعاهدة بالذات وإنما يعارضون الوفد للأسباب التى عارضوه من أجلها طول الـ ١٦ سنة الماضية . ولذلك لا يجدون من الجمهور ولا من أعضاء البرلمان أقل تأييد

وبعد التصديق على المعاهدة تشرع الوزارة الوفدية فى التوفر على درس المسائل الداخلية وانفاذ البرنامج الذي رسمه المؤتمر الوفدى للتجديد . ويبدو فى جميع الدوائر الوفدية اطمئنان عام على الحياة البرلمانية وبقاء الدستور مصونا . ولعل فى الظروف السياسية الجديدة التى يدريها كبار الوفديين ما يبرر هذا الاطمئنان . ولكننا لا نرى ان هذا يمنع من وضع العقوبات الصارمة على الحنث باليمين الدستورية فقد تعبنا كثيرا فى السنين الماضية وأوذيت البلاد فى كرامتها وأخلاقها وسياستها . واذا كان الاطمئنان مبنيا على أساس صحيح ـ وهو ما نعتقد ـ فان وضع هذه العقوبات لن يضر أحداً

فلسطين

انتهى الاضراب فى فلسطين . وكان انتهاؤه نتيجة منشور نشرته اللجنة العربية العليا التى استمعت إلى نصائح ملوك العرب كما انها أيضا التفتت الى وجود عشرين الف جندى بريطاني قد

شرعوا يستعملون المدافع ويلغمون القرى ويهدمون بيوت الثائرين . ومع ضعف ثقتنا بحسن النتيجة لهذا الاضراب أو هذه الثورة لا نزال نرجو أن يصل السكان العرب الى التخفيف من وعد بالفور بتحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين . وعن قريب ستصل اللجنة الملوكية البريطانية لبحث شكاوى العرب . ونحن نعود فننصح للعرب بأن سبيل المقاومة لليهود هو اتخاذ أسلحة هؤلاء اليهود فليفكر العرب فى انشاء بنك عربي وتأسيس مصانع حديثة وايجاد جمعيات تعاونية للزراعة والصناعات الزراعية . وليتركوا هذه النعرة العربية السخيفة . أو يجب عليهم بكلمة أخرى أن ينفضوا عن أنفسهم هذا الثوب الشرقى البالى ويأخذوا بالحضارة الحديثة ويتبعوا الخطط التى اتبعها أتاتورك كمال . بل عندنا ان هذا هو السبيل الوحيد للرقى أمام الامم الشرقية

خراب اسبانيا

تسير الحرب الاهلية فى اسبانيا وتفتك بالسكان وتخرب المدن وتنشر الخراب فى جميع الأنحاء . وكفة الثائرين الذين يقودهم الجنرال فرانكو ترجح كفة الحكوميين . والذخائر والاسلحة تصل الى جيش الجنرال فرانكو ولكنها لاتصل الى حكومة السنيور كاباليرو رئيس الوزارة الاسبانية

وقد أثمرت هذه الحرب الاهلية على فظاعتها ثمرة حسنة هي اعتراف فرانكو بالاستقلال الداخلى لاقاليم الريف فى مراكش الشمالية . ولم يكن هذا الاعتراف نتيجة الاريحية السياسية عند هذا القائد الاسبانى ولكنه كان نتيجة سحب الجيش الاسبانى من الريف لمقابلة حكومة الجبهة المتحدة . فانه عرف ان الريفيين يمكنهم أن يعلنوا استقلالهم فى فترة غياب الجيش الاسبانى عنهم فسلم بالواقع ومنح الريفيين استقلالا داخليا . وهو يعدهم بانهم ستفتح أمامهم أبواب الهجرة فى أسبانيا وان مساجد مدريد واشبليه وقرطبه القديمة ستجدد ...

ولكن الاريحية لم تكن كاملة . فان البطل العظيم عبد الكريم الذى كافح الاسبان جملة سنوات قبض عليه بعدها لايزال فى منفاه . وهذا مع العلم بان الجنود الريفيين يحاربون الآن الحكومة الاسبانية فى صف فرانكو

ولا نستطيع أن نثق بان الاستقلال الذى منحه فرانكو للريفيين سيدوم اذا انتصر هذا الجنرال على الحكومة . فانه سلم به مضطرا وقد يرجع عنه فى المستقبل . فن مصلحة الريفيين الآن أن يستردوا الجنود الريفيين الذين يحاربون فى اسبانيا لصيانة هذا الاستقلال من غدر الذين منحوه

روزفيلت ولاندون

فى أوائل نوفمبر تصل المعركة الانتخابية للرياسة فى الولايات المتحدة الى ختامها . فان الرئيس ينتخب كل اربع سنوات ويجوز له أن يعاد انتخابه مرة واحدة . ولهذا السبب رشح المستر روزفيلت نفسه للانتخابات أمام خصمه الجمهورى لاندون وأمام طائفة أخرى من الخصوم الذين لا يؤبه بهم

وجميع الطوالع الانتخابية تدل على أن المستر روزفيلت سيفوز ويعاد انتخابه لاربع سنوات أخرى . والسبب لذلك انه استطاع أن يجعل الحكومة مدينة بنحو الفى مليون جنيه انفقها على العاطلين وعلى التخفيف من الازمة . وهذا الدين العظيم الذى تحملته الدولة بالخطط التى اتبعها روزفيلت فى استخدام العاطلين وانقاذ المفلسين تعاب عليه من خصومه وهم جمهور الاغنياء ولكنها تعد له فضلا عظيما على الامة من جمهور المتوسطين والعمال

والفا مليون جنيه هما دين عظيم . ولكن موارد الولايات المتحدة الامريكية أعظم . ثم ان الديون الحكومية ازاء الاقتصاديات الحديثة وطرق التناول للنقد لاتخيف ولا تربك . وأعظم تهمة توجه الى الرئيس روزفيلت انه شيوعى وانه ينوى افساد النظام المالى حتى ينتهى بالفوضى التى يعقبها الشيوعية . ولكن الامريكيين لم تخدعهم هذه الاوهام التى ينشرها خصوم الرئيس

مشروع السنوات الاربع فى المانيا

فى مؤتمر نورمبورج الذى عقده الوطنيون الاشتراكيون فى المانيا تقرر وضع برنامج السنوات الاربع لاغناء المانيا بالمواد الخامة التى تستجلبها من الاقطار الاجنبية . وقد سبق ان قلنا ان الالمان نجحوا بالعلوم التى يتفوقون فيها فى اخراج البترول من الفحم وفى صنع الكوتشوك من مواد المانية وكذلك نجحوا فى ايجاد طائفة من المنسوجات الكيماوية مثل الريون . ولكنهم مازالوا فى حاجة الى مقدار كبير من المواد الخامة . وقد عينوا الجنرال جورنج مديرا لمشروع السنوات الاربع لكى تكون له السلطة المطلقة فى استنباط هذه المواد من المانيا . وقد اجبرت الحرب الكبرى الالمان على استخراج النترات من الهواء لصنع القنابل . فلما سكنت الحرب أصبحت المانيا تبيع هذا السماد بملايين الجنيهات للاقطار الاخرى . وليس بعيد ان يتجه الجنرال جورنج الى استخدام الالومينيوم مكان المعادن الاخرى . فان هذا المعدن كثير جدا فى الارض

ولكن استخراجه ليس سهلا . فاذا عرفت طريقة لاستخراجه بمقادير كبيرة فانه يغني عن كثير من الحديد والنحاس وغيرهما

والمظنون أن الجنرال جورنج سيعين مستشارا للدولة . أما هتلر فيقتصر على الزعامة

شئون الهند

وقعت في بومباي اعتداءات طائفية من الهندوكيين والمسلمين بعضهما على بعض قتل فيها أكثر من خمسين وجرح مئات . واحتاج الهندوكيون الى أن يطلبوا معونة الانجليز . وهذا تعليق مؤسف لمن يطلبون الاستقلال

وقد انتخب جوهر لال نهرو للمرة الثانية رئيسا للمؤتمر الهندي الوطني وهو هيئة هندية تشبه الوفد عندنا . وهو مؤلف من الهندوكيين والمنبوذين والمسلمين والسيخ والمسيحيين. ونهرو يختلف من غاندي الذي كان رئيسا لهذا المؤتمر من حيث انه اشتراكي يرغب في تعميم الصناعات الكبرى في الهند في حين ان غاندي يطلب الصناعات القروية والغزل في مقدمتها

والجمهور الهندي يميل الآن الى نهرو بعد أن رأى أن خطة العصيان المدني لم تعد على الهند بفوائد كبيرة وخاصة لأن الدستور الجديد محاط بقيود تجعله أداة غير صالحة للاصلاح والرقي . وقد صينت فيه حقوق الامراء المستقلين الذين أصبحوا حلفاء للامبراطوريين الانجليز

روسيا ومصاعبها

في الشهر الاسبق حوكم عدد كبير من الزعماء واشباه الزعماء في موسكو بتهمة الخيانة والتآمر على قتل ستالين . وحكم بالاعدام على ١٦ منهم ٩ من اليهود . ورأت المحكمة أن تروتسكي نزيل أسوج هو رأس هذه المؤامرة

وقد كان المفهوم الى الآن أن روسيا خالية من أحزاب المعارضة . وهي كذلك في الظاهر. لان الذي يعارض الشيوعية يعد خائنا ويحاكم على تهمة الخيانة . ولذلك انحدرت المعارضة الى الظلام وأصبحت مؤامرات تدبر في الخفاء

وليس تروتسكي معارضا للشيوعية ولكنه يعتقد ان ستالين معتدل أكثر من اللازم وانه يجب على روسيا أن تعمم الحركة الشيوعية في العالم . وقد كان ستالين ولا يزال الى الآن يعتقد ان الفلاحين يجب أن يؤخذوا باللين والهوادة وأن يترك قسم من الارض الزراعية بملكه الفلاحون حتى تتسرب اليهم المبادىء الشيوعية . كما انه يعتقد ان الدعاية الشيوعية خارج روسيا غير مجدية بل هي تضر بروسيا نفسها

ولا يعقل أن مؤامرة شهر سبتمبر الماضي هي آخر المؤامرات في روسيا

فى الدول الديكتاتورية

امتلأ العالم بالدول الديكتاتورية أو الفاشية مثل المانيا وايطاليا وبرتغال وتركيا واليونان .
وفى هذه الدول جميعها وان اختلف النظام الحكومى الذى تعمل به نجد شخصا هو رأس الدولة الذى يطاع عن حب وخوف معا . وهو بشخصيته الفذة القوية يجذب اليه عيون الامة وقلوبها ويستطيع بهذه العلاقة المتينة أن ينفذ جميع آرائه الاصلاحية بأسرع مما تستطيع الوسائل البرلمانية عند الامم الديمقراطية . والديكتاتور هوقبل كل شىء داعية يجب أن يثابر على الدعاية ويبين للامة ميزاته الشخصية كما يبين ميزاتها القومية . وهو لهذا السبب يحتاج الى تعميم التعليم والثقافة . لأن الدعاية تحتاج الى القراءة والقدرة على فهم الخطب وحفظ الاناشيد وتفهم التاريخ القومى .
ولذلك نجد أن جميع الامم الديكتاتورية قد عممت التعليم وعنيت عناية كبيرة بنشر المدارس . لأن المدرسة تتناول الطفل بغرس المبادىء الفاشية . فهى لذلك كبيرة الأهمية عند الديكتاتور
وقد نجد اهمالا فى نشر المدارس فى الامم الديمقراطية . ولكننا لا نجد أى اهمال من هذه الناحية عند الأمم الديكتاتورية . ولسنا بذلك نمدح الامم الديكتاتورية فان فيها من القيود للحرية مالا تعرفه الأمم الديمقراطية البرلمانية . ولكننا نقرر هذه الحقيقة من ناحية التعليم والمدارس وهى حقيقة لا يشك فيها . وميزة أخرى للامم الديكتاتورية هذا الاقبال على الرياضة البدنية . وهو اقبال لا نظير له عند الامم الديمقراطية . وقد تستطيع أن تقول ان النية المقصودة من هذه الرياضة هى التهيؤ للحرب والقتال . وهذا صحيح . ولكن الواقع الذى لا يشك فيه أن الشاب أو حتى الصبى أو الفتاة فى قطر مثل ايطاليا أو المانيا يبدون فى صحة الجسم واعتدال القوام أميز من زملائهم فى فى الاقطار الديمقراطية . ويجب ألا يفوتنا أيضا أن الحماسة للشخص هى على الدوام أكبر من الحماسة للنظام والمبدأ . ومن هنا نجد ان الامم الفاشية فى حماسة دائمة للمشروعات والدعايات الجديدة تنفذها وكأنها يد واحدة . لانها ملتفة حول الديكتاتور متحمسة له . فالاتراك يستجيبون لنداء أتاتورك . والالمان يلبون دعوة هتلر . والايطاليون لا يخالفون أمرا لموسولينى . ومن هنا هذا النشاط الذى يبدو فى انفاذ الخطط الاصلاحية فى جميع الامم الفاشية . أما فى الامم الديمقراطية فان المبادىء والانظمة لا تبعث التحمس كما تبعثه الشخصية الفذة للديكتاتور . ولذلك نجد التلكؤ والتردد . بل ان النظام الديمقراطى بطبيعة ما فيه من أحزاب اشتراكية ومحافظة وحرة وشيوعية يبعث هذا التردد ويضعف الحماسة بالمناقشة والبحث عن العورات والنقائص وتجريح الخصوم .
ويمكنك أن تعترض هنا أيضا بأن هذه المناقشة أو البحث انما هما برهان الحرية . وهذا صحيح أيضا

ولكن الذى لايشك فيه أن الشباب أوحتى الكهول يتحمسون ويعملون حزبا واحـدا فى الامم الديكتاتورية. أعظم ما تختلف فيه الامم الديكتاتورية عن الأمم الديمقراطية من حيث التعليم أنها أنزلت التاريخ من مستوى المواد العلمية الى دعاية وطنية ، فالأمة الديكتاتورية تقول ان العالم مدين لها بالثقافة والحضارة وانه لولاها لـكان العالم كله فى ظلام ، وهى تـكلف علماءها بأن يتمحلوا الاسباب لتبرير هذه الدعوى

فهاك مثلا أحد المقتبسات من كتاب ايطالى : « ايطاليا هى أعظم أمة فى العالم » وأيضا : « لم يعد الايطاليون أمة خيالية تعشق الغناء والقمر ولـكنها أمة من الجنود »

وهاك أحد المقتبسات من كتاب ألمانى : « ان تاريخ أوروبا انما هو من مآثر السلالة النوردية »

وهاك اقتباسا من كتاب تركى : « الاتراك هم أقدم أمة على وجه الأرض »

والنظرية الألمانية تقول ان الألمان هم الذين خلقوا الحضارة فى أوروبا بل فى العـالم كله . وهم بهجرتهم الى الشرق حتى الهند قد أوجدوا الأديان والثقافات والأخلاق . وانما كانوا ينقرضون باندغامهم فى السلالات المنحطة التى نزلوا بينها . ومثل هذه الدعوى يقولها أيضا أتاتورك ومؤلفو التاريخ . فان النظرية هنا تقول ان الأتراك قبل نحو ١٠٠٠٠ سنة خرجوا من أسيا فنشروا الحضارة بأوروبا وهم الأصل حتى فى حضارة مصر وبابل . والايطاليون لايعمدون الى هـذا الأصل النائى للحضارات ولـكنهم يذكرون الدولة الرومانية القديمة وأنها هى التى نشرت العدل فى أنحاء العالم . وانه لولا رومة لما كانت أوروبا الحديثة

وهذا الأكبار من شأن السلالة و قومية هو الذى دعا الألمان الى كراهة التزاوج مع اليهود

ومما يلاحظ فى الأمم الديكتاتورية أن زعماءها يصارحون بانتقاص الديمقراطية . ولـكنهم فى بعض الأحيان يمارسون من الديمقراطية أكثر جدا من الأمم التى تسمى نفسها ديمقراطية . ففى « فيلق العمل » الذى أسسته ألمانيا يعمل الشبان من جميع الطبقات ستة أشهر يفلحون الأرض أو يشقون الطرق فى زى واحد لايختلف فى ذلك ابن فقير من ابن غنى . وهـذه المساواة فى العمل الاجبارى أبعث على الروح الديمقراطى من أى شىء آخر

وكذلك الحال فى استفتاء الشعب فان الزعيم هتلر مثلا يرجع الى الشعب الألمانى فى كل كبيرة ويستفتيه فى الخطط المتبعة . وليس فى أوروبا « غير سويسرا » حـكومة تستفتى الشعب وتعتمد على الاستفتاء كما يفعل هتلر

وظنى أن بعض الميزات التى امتازت الحـكومات الديكتاتورية بها مثل الرياضة البدنية والتنبه الثقافى والخدمة الالزامية للانشاء والبناء فى الدولة واستفتاء الشعب . كل هذه وغيرها يمكن الأمم الديمقراطية البرلمانية أن تنتفع بها ولو خالفت الأسس الدستورية التى تقوم عليها الحـكومات الفاشية

سلامه موسى

الريون الذى يكتسح قطننا

مضى على كاتب هذه السطور أكثر من سبع سنوات وهو يكرر القول بان القطن المصرى قد أصبح عرضة لخطر عظيم جدا هو الريون أى الحرير الصناعى . واننا اذا استنمنا الى هذا الخطر ولم نقاومه فان زراعة القطن سوف تزول من مصر قبل أن تمر ١٥ أو ٢٠ سنة . فان هذا الريون يطارد قطننا من أسواق العالم ويحتل مكانه وهو يفعل به مثلما فعلت أصباغ الانيلين الكيماوية بالنيل الهندى فقد كان الهنود يزرعون نحو مليون وربع مليون فدان من النيل . فلما اخترع الألمان هذه الاصباغ كف الهنود عن زراعة النيل وصاروا هم أنفسهم يشترون الاصباغ الالمانية

وليس مصيرنا فى مسألة القطن يختلف كثيرا عن مصير الهنود فى مسألة النيل . فاننا الآن نشترى الريون ولايكاد يخلو منه بيت فقير أو غنى وهذا الريون يسير بقوة وبسرعة وينمو نموا مخيفا فليس بعيدا — لا بل من المحقق — أن يتغلب على قطننا ويطرده من أسواق العالم بل من سوقنا المصرية نفسها

ويسرنا أن هذا الذى نبهنا عليه فى أكثر من ثلاثين أو أربعين مقالا قد شرعت الهيئات التجارية تلتفت اليه . فقد كتبت مجلة غرفة الاسكندرية مقالا فى هذا الموضوع قالت فيه :

« فالواقع أن الاقطان المصرية الطويلة التيلة والطويلة المتوسطة والمتوسطة تستهدف لمخاطر عظيمة فى الاسواق الاجنبية من مزاحمة الحرير الصناعى — الريون — لها مزاحمة أقل مايقال فيها انها ناجحة الى حد خطر ، كما يتبين بوضوح من مقارنة أرقام الانتاج العالمى لغزل القطن المصرى وغزل الحرير الصناعى فى السنوات الثلاث الأخيرة وهى مقدرة بالليبرة — الرطل — الانجليزى كما يأتى :

سنة ١٩٣٣ من القطن المصرى ٦٠٢ر١٦٠ر٠٠٠ ومن الحرير الصناعى ٦٦٢ر٥٢٠ر٠٠٠

سنة ١٩٣٤ من القطن المصرى ٦٣٤ر١٤٠ر٠٠٠ ومن الحرير الصناعى ٧٨٨ر٨٥٤ر٠٠٠

سنة ١٩٣٥ من القطن المصرى ٦٢٨ر٤٣٥ر٠٠٠ ومن الحرير الصناعى ٩٣٢ر٧٨٠ر٠٠٠

« فمن هذه الارقام يتضح أنه بينما ظل انتاج غزل القطن المصرى ثابتا تقريبا بل وتأخر فى السنة الماضية عنه فى التى قبلها نجد أن غزل الحرير الصناعى يتقدم بخطوات واسعة حتى لقد زاد فى ثالثة هذه السنوات عنه فى أولاها حوالى ٥٠ فى المائة ، وبينما كان مساويا لغزل القطن المصري فى أولاها تقريبا زاد عليه بمثل هذه النسبة الكبيرة فى السنة الثالثة ، ومتى كان الامر كذلك فلا سبيل الى مداراة الخطر الذى يستهدف له قطننا الخام فى أسواق البلدان الصناعية »

* * *

هذا هو ماقالته هذه المجلة وكله صواب وكله يستحق النظر والبحث السريع فى وسائل العلاج بل اتقاء الكارثة القادمة التى تنتظرنا كأنها القدر المحتوم . وقبل أسبوعين تقريبا أذاعت الجرائد تلغرافا هو خلاصة مقال لاحدى المجلات الاقتصادية الاوربية عالجت فيه هـذه المسألة نعنى تقدم صناعات الريون . وقد التفتت الى ناحية لها مغزى كبير جداً فى هـذا الموضوع . وهو أن الامم التى راجت فيها صناعات الريون هى نفسها الامم التى تستورد أكبر مقدار من القطن الخام ولا تزرعه فى أرضها وهى اليابان وايطاليا وألمانيا فانها تشترى القطن الخام من الأقطار الأجنبية وتؤدى ثمنه نقدا ولذلك أكثرت من إنشاء المصانع التى تصنع الريون حتى تستغنى عن استيراد القطن وتحتفظ بثمنه

وتقترح المجلة التى نقلنا عنها هذا الاقتباس أن نعالج اكتساح الريون لقطننا بأن نقبل على إنشاء المصانع للغزل والنسيج ونحميها من واردات الريون وليس شك فى قيمة هذا الاقتراح ولكنه لن يصدر هذا الموج الجارف . ولا يعقل أننا فى يوم ما نستطيع أن نستهلك جميع القطن المزروع فى مصر ولا بد من أن الاقطار التى تستورده ستكف عن استيراده بما تصنع من الريون

وعندنا أن العلاج الحقيقى أن نستعد من الآن لزراعة مزروعات أخرى غير القطن وأن ندفع الحركة الصناعية بأقصى ما يمكننا حتى إذا جاء اليوم الذى لا تكفينا فيه الزراعة أمكننا أن نعتمد على الصناعة . وليس لنا مفر من أن نصير أمة صناعية . وقد فتح لنا بنك مصر ميدان الصناعات فيجب أن نتوسع فيه بل يجب أن نستعد لانشاء مصانع الريون نفسها . فان الولايات المتحدة الامريكية تزرع القطن ومحصولها منه أكبر من محصول سائر العالم ومع ذلك أقبلت على إنشاء مصانع الريون بهمة عظيمة

ان الخطر قادم فعلينا أن نتوقاه من الآن ونرسم الخطط للوقاية منه من الآن



أسلوب التفكير الحديث

نعنى بأسلوب التفكير الحديث ذلك التفكير المثمر فى الهيئة الاجتماعية الراقية سواء أكانت ثمرته اختراعا أم اكتشافا أم اصلاحا . وذلك لأن فى العالم الحاضر أساليب كثيرة للتفكير يعد بعضها عقيما وبعضها الآخر قليل الثمرة كما أن بعضها قديم لا يمكن مع النزاهة الذهنية أن يوصف بأنه تفكير إذ هو فى حقيقته تسليم أعمى لعادات وتقاليد قد التصقت بالعواطف فصارت عقائد يتوهم المعتقد بها انها تفكير سليم

والانسان يشق عليه التفكير الارادى الموجه . ولذلك لا نكاد نسأم أو نتعب ونجد الفرصة للاستراحة إلا وتنساق خواطرنا سائبة مطلقة بلا قيد . وهذه الخواطر هى التفكير البدائى الذى لا يتقيد ولا يوجه وجهة معينة . وهى فى الغالب تعبر عن شهواتنا ورغائبنا ولا تكاد تختلف إلا قليلا من الأحلام ومن تفكير الأطفال

ولكن الانسان منذ عصور بعيدة حاول أن يوجه تفكيره ويضبطه بالمنطق ويحدد للالفاظ معانيها ، وهذه المحاولة ترى على أقواها عند الاغريق . فاهتمام افلاطون وأرسطوطاليس بتحديد المعانى وتمييز المشكلات التى تنشأ من العبارات واضح . ويزداد وضوحا فى القرون الوسطى سواء عند الأوربيين أم عند العرب . فان القارىء للمؤلفات التى وضعها مؤلفو هذه القرون يشعر بأن جل اهتمامهم منصرف إلى تعيين المعنى وتسييجه بالألفاظ التى تجمم وتمنع . ولكن هذا الاهتمام على فائدته مع الاعتدال ينتهى فى الغلو إلى أن يكون عبادة للألفاظ فينعكس الغرض وتعود الألفاظ كأنها الأصل وليست الوسيلة

ونحن نتعب كثيراً عندما نقرأ أرسطوطاليس لعنايته بتحديد العبارات والألفاظ ولكننا نتعب أكثر جداً عند ما نقرأ مؤلفى القرون الوسطى من العرب والأوربيين لأنهم اتخذوا طريقة أرسطوطاليس وغلوا فيها حتى خرجوا عن الأصل الذى قصده ذلك المعلم الأول . فاذا قرأناهم وقعنا فى تيه من الألفاظ يوهمنا ان هؤلاء المؤلفين قد نسوا ان الالفاظ وسائل فقط ووسائل سيئة مع ذلك فيجب أن نقتصد فيها بقدر الامكان

كانت مهمة الاغريق فى التفكير أن يجعلوه مطابقا للمنطق . ولكنهم كانوا فلاسفة يفكرون بعقولهم فقط . ولم يعرفوا التفكير باليد أى لم يعتمدوا على التجربة العلمية التى نعتمد عليها كثيراً

هذه الأيام . وقد شرعوا فى هذه التجربة فى الاسكندرية ولكن لمدة قصيرة . ثم كانت تجاربهم العلمية قائمة على البحث عن حقائق الاشياء وليس عن فائدتها وهذا على عكس مايجري بيننا هذه الايام

وأولى الخطوات نحو التفكير الحديث قام بها روجر بيكون الراهب الانجليزى فى بداية القرن الثالث عشر . فانه استنكر الاستسلام للمنطق وقال انه لا يكفى للوصول إلى الحقائق . وانما يجب أن نجرب التجربة ثم نقابل بينها و بين تفكيرنا المنطقى . فاذا كان تفكيرنا يطابقها فهو صحيح وإلا فهو خطأ . لان التجربة لا تخطىء ولكن المنطق قد يخطىء

وفى أواخر القرون الوسطى نجد حركة تنشأ فى الاندلس هى مزيج من العلم والعمل والصوفية فان المسلمين الذين ورثوا الثقافة الفارسية عن مدرسة الاسكندرية عن المصريين القدماء قد نظروا إلى الذهب النظر المصرى القديم وهو انه يطيل الحياة أو يخلد الانسان . فحاولوا أن يحيلوا المعادن إلى الذهب . وصار الخلود (الصوفية) يقرن إلى تجارب الذهب (الكيمياء)

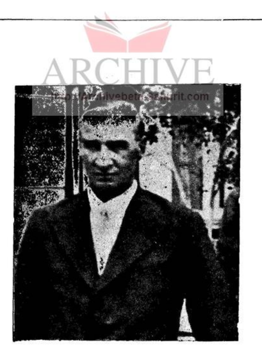
ونقل اليهود هذه التجارب إلى أوربا وكان هناك أمراء كثيرون مفلسون ظنوا ان الطريق إلى الثراء ليس شاقا ما دام الذهب يصنع ويطبخ فاستقدموا الكيميائيين وترجمت كتب العرب فى هذا الموضوع وأصبحت الكيمياء علما يقوم على التجربة وقد تخلص من الصوفية أى من الرغبة فى السعادة والخلود الخ

وجاءت النهضة فكانت ثورة على الفلسفة والصوفية . واحتقارا لهما عظيما . فان الناهضين شعروا بأن تأخرهم يعود إلى هذا التفكير الموروث عن أرسطوطاليس وهو الذى انحط إلى أن صار كأنه الحرجة الملتفة من الالفاظ فى القرون الوسطى . ثم ان الاضطهاد الدينى منع هؤلاء الناهضين من أن يشغلوا أذهانهم بالبحث عن حقائق الاشياء . ولذلك لم ينفقوا قليلا أو كثيرا فى البحث عن ماهية النفس أو الروح أو العالم الثانى أو مصير الكون أو نهاية الانسان . فان كل هذه الابحاث كانت بسلطان الكنيسة تعرضهم لخطر المحاكمة بتهمة الهرطقة . فتركوها خوفا ثم قاطعوها كرها وانصرفوا الى استخدام المعارف الانسانية لخدمة البشر . وهذا الانصراف يعد الفائدة الوحيدة للاضطهاد الدينى إذ كان فى إبانه أمرا للمفكرين بأن يتركوا الفلسفة والصوفية ويقصروا تفكيرهم على ما يفيد الناس فوائد دنيوية

وانطلق المفكرون بعد ذلك يفكرون فى الخدمة البشرية لا أكثر . وكبر شأن التجربة العلمية حتى كان فولتير يعتقد أن نيوتن صاحب نظرية الجاذبية أعظم رجل عاش فى عصره . ونيوتن هذا هو أصل الطبيعيات الحديثة التى نرى أثرها فى الرقى الصناعى العام

ولكن التجربة العملية التى هى آخر أطوار للتفكير الحديث لم تعم جميع المعارف الانسانية،

فهناك « علوم » الاقتصاديات والاجتماعيات والاخلاقيات التى لاتمسها هذه التجربة العلمية . ولذلك لا يمكن أن تعد إلي الآن علوما . ونحن لهذا السبب نعالجها كما نعالج الفلسفة أو الصوفية بالتفكير المنطقى أو بأقل منه أي بالتفكير التقليدى الذى ورثناه . فنحن فى هذه العلوم متأخرون عن تفكيرنا الحديث فى الكيمياء أو الطبيعيات بنحو ألفى سنة . وقد يعترض هنا بأن التفكير باليد أو التجربة العلمية لا تصح على هذه العلوم . وهذا خطأ . فان الاحصاء يقوم مقام التجربة . وهو مضبوط ويمكن استخراجه من أقطار مختلفة واستنتاج النتائج منه . ولكن وراء الاقتصاديات والاجتماعيات والاخلاقيات مصالح مالية تمنع قبول بعض النتائج . وهى العقبة الحديثة للتفكير الحديث



صاحب السعادة البارون فون واخندورف الوزير المفوض الجديد لدولة ألمانيا فى مصر

مدارس الهواء الطلق فى المانيا

لقد سبقت المانيا غيرها من الامم فى هذا المشروع ، ولا عجب ، فالعناية بالصحة وبالفحص عن الاطفال طبيا عند لحاقهم بالمدارس كبير جدا فى المانيا . وقد علم بالبحث أن هنـاك ٤ ٪ من الصغار يستطيعون الذهاب إلى المدرسة العادية ولـكنهم لا يمكنهم الانتفاع التام بالتعلم فيها ، لا لنقص فى قواهم العقلية ، بل لفقر دم ، أو ضعف جسم ، وهذا ناشىء عن رداءة الغـذاء ، أو المسكن أو البيئة ... الخ ونظراً لان التعليم عام اجبارى فى المانيا ، والحـكم على أمثال هؤلاء الضعفاء بالبقاء فى المدارس العادية فيه قضاء على حياتهم ، فالنتيجة الطبيعية كانت انشاء مدارس لهم فى الهواء الطلق بضواحى المدن الـكبيرة . ولقد فتحت أول مدرسة من هذا النوع سنة ١٩٠٤ فى شارلوتنبرج إحدى ضواحي برلين

والمبادىء المتبعه فى هذه المدارس هي :

(١) الحياة والتعلم في الهواء الطلق . (٢) إعطاء الطفل كية كبيرة من الغـذاء الجيد بنظام خاص . (٣) مراعاة النظافة التامة ، وكثرة الراحة ، واللعب . (٤) اختيار المدرسين الماهرين لادارة هذه المدارس والتعليم فيها . (٥) جعل الفصول صغيرة ، وتنويع الدروس حتى تـكون شائقة ، والتقليل من المقدار الذى يعطى التلاميذ مراعاة لحالتهم الصحية ، وتوزيع أوقاتهم بين العمل ، واللعب ، والقراءة ، والغناء ، والراحة ، والغذاء . (٦) العلاج بالتمرينات فى الهواء الطلق ، وبأشعة الشمس ، والحمامات . (٧) الوقاية من البرد والملابس الصوفية وغيرها ، وتجنب التيارات الهوائيه . (٨) العناية بصحة الاطفال وأسنانهم

وبعد التجربه الاولي لهذا النظام أظهر الاطفال نجاحا في عملهم ، وقويت أجسامهم ، وحسنت صحتهم ، وزاد وزنهم ، وشفى كثير منهم من مرضه ، ولم يتأخروا فى دروسهم ، مع أنهم كانوا يشتغـلون أقل من نصف الوقت الذى كان يشتغله قرناؤهم فى المدارس العـادية ، ثم كان فى استطاعتهم بعد العلاج أن يشتغلوا مع غيرهم الاصحاء بالمدارس العامة ، ويسيروا على مستواهم فى الدراسة . وبذلك لم يحرموا التعليم من أجل ضعفهم ، ولم يرهقوا بالنظام العادى من التعليم . وإذا نجحت هذه الطريقه فى تعليم الضعفاء من الاطفال فلا شك فى نجاحها فى تعليم الاقوياء والمتوسطين منهم

محمد عطيه الابراشى

امتانه ونفسيتانه

كثيرا ماعقد الكتاب المقابلة بين الجزر البريطانية والجزر اليابانية . ومكان كل منهما ، والمشابهة لاتقتصر على الناحيه الجغرافية فان كلا من الدولتين كانت ولاتزال تملك قوات بحرية ضخمة

ولكن المقابلة والمشابهة تقفان هنا فان الانجليز يختلفون فى نفسيتهم أكبر الاختلاف من اليابانيين وذلك أن الانجليزى ديمقراطى لاتكاد تحس وانت ببلاده انه خاضع لحكومة بل هذه الحكومة لاتكاد ترى لها علامة تدل عليها والانجليزي عريق فى حضارته التى لم تتغير وانما نمت نموا تدريجيا والمرأة الانجليزية تمارس الوانا من الحرية وتشارك الرجل فى الاعمال الحرة . وفى انجلترا خاصة وبريطانيا عامة حركة صناعية تعد قديمة بالمقابلة الى غيرها فى الاقطار الاجنبية وفى كل هذه الاشياء تختلف بريطانيا من اليابان

ولكن المشابهة الصادقة يمكن أن نقوم بين المانيا واليابان . فان النفس الالمانية هى أقرب ماتكون الى النفس اليابانية على الرغم من اختلاف اللون والسلالة واللغة والدين . والالمان هم فى معظمهم بروس . وبروسيا هى القطر العظيم الذى يستغرق أكثر من النصف الشمالى لالمانيا . وقد سمى اليابانيون « بروس الشرق »

وانما سموا كذلك للروح الحربى الذى يسود الدولتين . فان البروس منذ أيام فردريك الكبير يحترفون الجندية كأنها الصناعة الوطنية كما كان يقول ميرابو زعيم الثورة الفرنسية . والياباني كذلك يفهم انه جندي قبل أن يكون فلاحا أو تاجرا أو طبيبا أو معلما . بل لقد كان المعلم الياباني الذى يعلم الصبيان الذين لايزيد عمر أحدهم على عشر سنوات يدخل اليهم فى الفصل وهو يحمل سيفا يجلجل به . ولم تبطل هذه العادة الا منذ وقت قريب

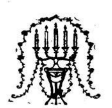
وفى كل وقت فى اليابان والمانيا تتخذ الدولة مقاما ليس له شبيه عند الامم الاخرى فى الاحترام بل التقديس . فان امبراطور اليابان مقدس بل مؤله وقد وجد اليابانيون المسيحيون بعض العنت من هذه الناحية . ولم يحدث تصادم صريح بين الدولة وبين المسيحيين كتلك التصادمات التى حدثت أيام الامبراطورية حين رفض المسيحيون عبادة الامبراطور الرومانى ولكن شيئا شبيها بذلك قد حدث بالفعل وان كان اقل فى الدرجة لم يبلغ حد ازهاق الارواح

وقد كان هيجل فيلسوف المانيا يقول « ليس على الدولة من واجب هو اسمى من واجب احتفاظها بنفسها وقمع خصومها وليست الحرية السياسية أو حرية الضمير سوى أحلام مخترعة » وهذا

مذهب فى الدولة لا يستطيع أن يقول به انجليزى أو فرنسى ولكن اليابانى يقول به ولذلك حين شرعت اليابان سنة ١٨٦٨ تأخذ بالأساليب الاوربية عمدت الى دستور بروسيا فنقلته الى بلادها وآثرته على جميع الدساتير الاوربية . وليس ذلك إلا لأنها وجدت فيه مايوافق مزاج الأمة من ناحية الاكبار من شأن الدولة

هاتان الخاصتان أى الاكبار من شأن الروح الحربى والاكبار من شأن الدولة تشترك فيهما اليابان وألمانيا . ولسنا نعنى بذلك انهما تحبان الاعتداء أو تطلبان الحرب فان الذي ينظر الى ألمانيا ويتأمل خططها ونظمها يشعر أنها تعنى كثيراً بتوقى الحرب وانها فى كل محاولاتها لكفاية نفسها بالزراعة والصناعة تريد أن تحمى نفسها فقط من الاعتداء . ولكن الروح الحربى هو نزعة ذهنية ينزع اليها الشعب كله سواء فى ألمانيا أم فى اليابان كما ينزع الانجليز الى الثقافة البدنية ويقبلون على الرياضة الجسمية . فان موظف الحكومة المدنى فى اليابان يتخذ الشكة الحربية وان لم يحمل السيف وقد أشرنا الى أن المعلمين كانوا الى وقت قريب يحملون السيوف ، وليس الالمان كذلك ولكنهم يحترمون الجندية احتراما لامثيل له فى أوربا كلها . والجندية عندهم أخلاق قبل أن تكون حرفة فان الطلبة فى الجامعات الألمانية يتعلمون المثاقفة بالسيوف ولو كانوا يستعدون لأن يكونوا قسيسين ولهذا السبب يمكن أن نقول ان الحركة الهتلرية الأخيرة هى فورة قومية تجد التأييد من جميع الشعب إذ هى تعبر عن نفسيته

وكذلك الجندية فى اليابان أخلاق كالرياضة البدنية عند الانجليز . فان القسيسين البوذيين يحرم عليهم دينهم قتل بعوضة . ومع ذلك يتعلمون الحركات العسكرية وينالون قسطا من الثقافة الحربية . ولا يعقل ان الحكومة اليابانية تعد هؤلاء القسيسين للقتال الذى يناقض ديانتهم البوذية . ولكنها تعلمهم مبادىء الجندية لان هذه المبادىء هى الروح الوطنى السائد فى اليابان



القبعة رمز الحضارة

مسألة الطربوش وتوحيد الزي

آراء لبعض كتاب مصر ومفكريها

رأى الاستاذ محمود عزمى

« قامت فى بلاد الشرق المتكلمة باللغة العربية نهضات وثابة الى الاستقلال والانطلاق من القيود وكثر خلالها الحجاج بين أن يعود القوم الى المدنية العربية أو أن يأخذوا من المدنية العصرية وحاول البعض أن يوفق بين الرأيين ورأى البعض ان هذا التوفيق محال لانقطاع الصلة - بفعل محن التاريخ - بين حاضر هذه الشعوب الشرقية وماضى الامة العربية أو الامم الاسلامية ، بتعبير أصح . وأنه لامحيص من الاختيار بين المدنيتين . ولست أدرى على التحقيق ما هو الرأى الغالب لكنى أدرى أنى انا من الذين ينادون بملء فيهم بضرورة الاخذ من المدنية العصرية وهى الحضارة الغالبة وبأن الخير فى شخوص الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية الى شواطىء البحر المتوسط الشمالية الغربية وبأن كل نظرة الى رمال التيه والبادية انما تكون نكوصا على الاعقاب فى ميدان الجهاد الذى يسير فيه العالم سيرا هائل السرعة الى الامام

وسط هذه التيارات المتقابلة أقبل صيف ١٩٢٥ وكان على أن أمضيه فى القاهرة . وعندى أن بعض الاصلاحات الاجتماعية لاتجدي فيها المناقشة ولا يفيد الجدل بل تجدى القدوة ويفيد العمل . من أجل هذا اعتزمت ان أنفذ ما أنا مقتنع به من رأى فى صدد المدنية العصرية وفى صدد القبعة .

لكن « الأخطاء الوراثية » المتراكمة كان لها فى عزيمتى بعض الأثر . فجعلتنى أجد من « حسن الفطن » ألا أفاجىء اخواني وأصدقائى بما سأضع على رأسى فى مصر من عمرة جديدة ، وأن أنذرهم قبل الموعد بأيام حتى لاينقضوا على بالسؤال والاستفسار ، واذن فقد حددت لنفسى اليوم الأول من شهر يوليه لسنة ١٩٢٥ لألبس فيه القبعة وأخذت منذ العشرين من شهر

يونيه أعلن كل من أقابله من الأخوان والاصدقاء انى مغير لباس الرأس من أول الشهر التالى

وجاء أول الشهر وقصدت فى حزم وهرولة إلى بائع القبعات بميدان سوارس ولاحظت أن سرعة الخطى قد أخذت تقل عندما اقتربت من الحانوت ولاحظت أن السير قد وقف بي عند باب الحانوت ولاحظت انى أخذت أنظر الى القبعات المعروضة خلال الزجاج ، ولاحظت أنى استأنفت سيرى فى شارع قصر النيل دون أن أشترى القبعة ودون أن أدخل حانوت القبعات ، ولاحظت أني أخذت أتهم نفسى فى صوت خافت بأني « جبان » وبأن « الأخطاء الوراثية » لاتزال تجد منى منفذا ومنيت نفسى بالعودة الى الحانوت بعد الظهر لكنى لم أعد اليه عاما كاملا

ومضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع . وأقبل الصيف من جديد، صيف سنة ١٩٢٦ والمناقشة حول « الطربوش والقبعة يتسع نطاقها حتى وصل الى « الرابطة الشرقية » التى أرادت أن تتذرع « بفتوى » يصدرها الأطباء فتقدمت إلى جمعيتهم بأسئلة واستيضاحات انتهت الجمعية إلى الاجابة عنها فى اجتماعها العام

وأعلن القرار أو أعلنت الفتوى مساء فكانت هى القاضية على « أخطائى الوراثية » من هذه الناحية إذ قصدت صباح اليوم التالى السبت الثالث من شهر يوليه ١٩٢٦ الى بائع القبعات نفسه واشتريت قبعة الصيف وخلعت عن الحوذى ما كان على رأسى قبل هذا من طربوش

ومنذ ذلك اليوم ألبس القبعة متناوبا أنواعها المتمشية مع كل فصل من فصول السنه

(عن مجلة الهلال أول نوفمبر سنة ١٩٢٧)

فتوي جمعية الاطباء المصريين

عقدت جمعية الأطباء المصريين اجتماعا عاما صباح يوم الجمعة الموافق لثانى من شهر يوليه سنة ١٩٢٦ وقالت « هيئة كبار الأطباء » فى فتواها الذى نشرته الصحف أن الطربوش لباس رأس غير صحى وأن للباس الصحى شروطا عددتها واذا بها متوافرة فى القبعة وغير متوافرة إلا فيها

رأى الاستاذ عبدالله حسين

. . . انما الذى يهمنا هو أن قد حان الوقت للتفكير فى لباس الرأس . لاشك فى أن الطربوش قد انحدر الينا من بلاد أخرى سواء أقيل انه صنف من الطربوش المغربى أم انه جاء الينا من

تركيا وان تركيا أخذته عن اليونان او بعض البلاد البلقانية أو بعض بلاد التركمان الخ على أن الواقع هو أن الطربوش ليس له أصل مصرى أو عربى أو اسلامي وانه لاعلاقة له بالدين أو باللغة وكان لبسه محاكاة للغير

ليس الطربوش لباسا لمعظم سكان مصر فسوادهم يلبسون العمامة والطاقية . ومن جهة أخرى يلبس المصريون فى الخارج القبعات . واذا لبس أحدهم طربوشا لفت الانظار وقد يحتمل متاعب . لأنه يدل جميع الناس على انه اجنبى . وفى البلاد تعصب ضد الاجانب أو سعى لاستغلالهم . ويعتقد الكثيرون من الاجانب أن الطربوش لباس للامم المتأخرة . مهما يكن من شىء . فقد آن الاوان للتفكير فى توحيد الزى كله لأن مصر تنفرد بشذوذ غريب واختلاف الازياء بين ابنائها

(الاهرام ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦)

رأى الاستاذ احمد الصاوى محمد

رأيت يوم افتتاح البرلمان جنديا من جنود الجيش يدوخ من الشمس فيحملونه الى أقرب مكان حيث صبوا حالا على رأسه كوز ماء ! . ولو أن جنودنا يلبسون ماتلبسه كل الجنود فى البلاد المتمدينة كالقبعات والخوذات الخفيفة لما رأينا العرق يتصبب على وجوههم ويبلل سترهم

الاهرام ٢٦ مايو سنة ١٩٣٦

إنك لاتجد بلدا فى العالم كله قد تنوعت أزياء الناس فيه وتنافرت ملابسهم مثل مصر . تجد الطربوش وحده ، والطربوش المغربى والطربوش المعمم والعمامة واللبدة والطاقية واللاسة الخ

فاذا نظرت الى شارع من شوارعنا وجدت كرنفالا متناقضا عجيبا كأنه عيد من اعياد المساخر وكأن الناس فى ازيائهم مثلما هم فى طباعهم قد اتفقوا عندنا على ألا يتفقوا فلا من وجهة الذوق العام ولا من وجهة الأخلاق العامه ولا من وجهة الكرامه القوميه يمكن ان يعد هذا مما يدعو الى الرضى او الارتياح

(ما قل ودل)

رأى الاستاذ سلامة موسى

« القبعة هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر سواء أكان يابانيا أم صينيا أم انجليزيا أم أمريكيا . ونحن اذا لبسنا القبعة فلسنا بذلك نلبس لباس أوربا فقط بل انما نصطنع لباسا اتفق

المتحضرون على وضعه على رؤوسهم كما اتفقوا على أن يأكلوا بالسكين والشوكة أو كما اتفقوا على أن يستحموا كل يوم . فان للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها واتخاذ القبعة من هـذه العادات فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلباس خاص يجعلنا فى مركز من الشذوذ يجلب الينا الانظار فيعمد السياحون الى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الامم التى جاءونا منها . . .

« عن كتاب اليوم والغد مارس ١٩٢٧ »

رأي الاستاذ نقولا يوسف

منذ نحو ستين عاما أصـدر الخديوى اسماعيـل أمره لموظفى الحكومة المصرية باستبدال « البنطلون » بالقفطان فثارت ثائرة المحافظين ولكنهم اعتادوا الجديد بعد ذلك . ومسألة العادة هي التفسير السيكولوجي لكراهة الجديد واهله . وعندنا اليوم ألوف من الشبيبة المصرية الراقيـة تود لو استبدلت الطربوش بالقبعة ولكنها تخشى الانتقاد الموهوم . ولهذه الرغبة أسباب معقولة أولها : أن الطربوش مضار صحية أعلنتها منذ سنوات جمعية الاطباء المصريين اذ هو لايتفق مع طقس البـلاد وشمسها . وثانيها أن القبعة مع حمايتها الرأس والعينين من وهج الشمس قد صارت رمزاً للحضارة لدى جميع شعوب العالم فاليابانيون والاتراك والافغان يلبسون اليوم القبعة مثل أهل أوربا وأميركا لانها لباس المتمدينين . وثالثها أن الطربوش ليس بلباس مصرى ولاعربي حتى نتعصب له وحدنا دون سائر أمم العالم . ومع ذلك فسنضطر قريبا الى خلعه كما خلعنا البرقع !

رأى طريف لمصطفى أفندي صادق الرافعي

« لايهولنك ما أقرر لك من أن القبعة على رأس المصرى فى مصر تهتك أخـلاق أو تهتك سياسي أو تهتك دينى أو من هذه كلها معا . . .

ثم انى مستيقن أن الافكار الشرقية أو الاسلامية تحت القبعة هي غيرها تحت الطربوش لان تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه وهذا لايكابر فيه أحد فقد عاد الامر الى صبغة نفسية كما ترى فمن سخافة التقليد بل من النفلة أن نترع نحن الى ما نحذوه ونفشأ على الوقاية من شمس أرضنا بهذه الوقاية المحكمة فى حين أنه ان لم تحمل بيننا وبين الشمس ونورها وحرها ملاءمة فنهزل لها ونعتادها من الصغر ونلقاها بوجوهنا هيأنا ذلك لضرباتها عند أيسر الاسباب . . . » ؟

الأحزان العامة..!

تحدثنا فى مقالنا السابق عن « الانسان والحضارة والفلسفة » حديثا قصيرا عن بعض متاعب النوع البشرى ، التى تجابهه بها مدنية العصر ، وحديثنا اليوم قد يتصل موضوعه من قريب أو بعيد بموضوع الحديث السابق ، اذ انه تلخيص تحليلى للأحزان العامة التى يحسها الناس ولا يملكون دفعها ، أو يملكون الدفع ويقصرون عنه بدوافع قوية من ضعف الروح ووهن الارادة ، وهى من الامراض النفسانية التى اكتسبها الناس على أثر أخذهم بالتحضر واعتيادهم الرفاهية والبلهنية !

وفى الواقع لا نكاد نلمس من الآثار السلبية لمدنية العصر والحرب العظمى أيضا ما هو أشد خطرا على الناس وأقسى نكاية بهم من الضعف المعنوى الملحوظ فى وهن الأخلاق واستنامة الضمير العام واختناق النزعات الخيرة أو ركودها على أحسن ظن . وهذه الحالة الشنيعة التى يتعرض لها المجموع الحى المتحضر تهدد الكيان الانسانى بانحلال سريع أداته رد الفعل الذى يحدثه نوم الضمير وضعف الارادة وركود النزعات الخيرة

إن أساس تعمير الكون يرتكز فى معظمه على الحب المتبادل بإخلاص بين الأفراد دون نظر إلى النفع الشخصى والاستفادة المادية أو غيرها مما يدخل فى باب تبادل الفائدة وتحقيق الأغراض الفردية وما اليها ، والمشهود بجلاء ان هذا الحب النبيل الانسانى يتلاشى ويذوب كلما أوغل الانسان فى سبل الحضارة ! لأن أساليبها تقوم على الاستغلال المغرض والاستفادة من كل شىء واقتناص الفرص التى تسنح دون مراعاة لما يسببه ذلك للآخرين من متاعب وصعاب ، قد تنتهى بهم إلى العدم أو الفناء نفسه ، مما ليس يتفق وروح التعاون الانسانى على اسعاد الانسان والنهوض بعواطفه نحو الغاية السامية من الوجود

لسنا ممرفين إذا قلنا ان مثل هذه الأحزان الفاجعة تجؤر بالشكوى منها كل بيئة ، ويضيق بها كل ميدان . والحديث التفصيلى الشامل منها فضلا عن أنه مشبع شديد الايلام للنفس . فهو متشعب ذو دروب كثيرة ، يصعب ارتيادها جميعا بل قد يستحيل كل ما فى الاستحالة من مدلول مفهوم

فاذا نحن صوبنا أنظارنا نحو الطبقات التاعسة التى تمثل الاغلبية من الاحياء ، أزعجتنا هذه

الحلوكة القاتمة التي تغشى حياتها البائسة ، ففي محيط العمال شكوى غير منقطعة من عسف أصحاب الاعمال ، الذين يربحون الكثير الطائل ويبخلون على الايدى العاملة بالقليل التافه من الاجور والجزاء وشكوى متصلة من نشاط العقل العالم المبتكر في ابتداع الآلات التي تعطل الآلاف والملايين . وتجعل الايدى العاملة مخلوقات طفيلية لا حاجة اليها ولا فائدة تؤديها لأصحابها ولا غيرهم ، وقد أصبح العمل الذي كان يستغرق انجازه الشهور ويتطلب المئات من العمال ممكن الانجاز بعشرة رجال في عشرة ايام أو نحو ذلك ، بتكاليف قليلة واتقان كثير . وليس يدرى أحد مصير هذه المخلوقات الآدمية المتعطلة التي تقذف بها المصانع كل يوم الى عرض الطريق ؟ !

يلوح لنا في ساعات التأمل الجاد الهادىء شبح القحط العام يتهدد العالم بعد بضعة قرون كنتيجة منتظرة لتتابع انقراض الصناعات التي تقتلها غيرها في أظل وارف وأمن مستتب من صالح الاقتصاد في الوقت والجهد والنفقات ، وفي الواقع لا يمكن لأحد أن يتكهن بعمر صناعة من الصناعات مادام العقل المخترع نشيطا ينذر أي صناعة بالانقراض بمجرد ظهور ماهو أجدى منها . !

واذا كانت كبرى آفات حياة الطبقات العامة هي جشع أصحاب العمل وطغيان الآلات على الايدى وانقراض الصناعات التي تجعلها مستنبطات العصر عتيقة غير ملائمة ، فان هنالك آفات أخرى لا تقل عن هذه تنغيصاً لحياة العمال وازعاجاً لهم . فاننا نسمع عن أنواع من الامراض لم يعرفها الانسان إلا منذ أمد قصير ، أي بعد ظهور مدنية العصر الحديث . وهناك أيضا أمراض خاصة تتعرض لها طوائف خاصة من العمال كالمشتغلين بالتعدين والكيمياء الصناعية والمناجم وغير ذلك كثير . ويحسب هذه الطبقات حرمانها بسطة العيش ومتع الحياة رغم انها تدفع ثمن ما تناله غاليا باهظا ، ورغم انها تؤدى الى أفراد البشر خدمات جليلة تفوق الحصر والوصف

وقد تكون أحزان هذه الطوائف على أي من الاحوال مستطاعة الترفيه ، ولكننا اذا حاولنا ذلك الترفية وجدناه يكلف قلب النظام العام ، لانه يتطلب تنازل طبقات من الناس عن طباعهم التي تجرى في دمهم وتتردد مع أنفاسهم ، كالاثرة ، والجشع ، وموت الضمير أو تدنسه . وقد لا نكون مغالين في القول بأن الخروج على هذه الطباع المكتسبة قد يكون أندر من الراديوم . !

اذا انثنينا عن الطبقات العاملة لنستقرىء أحزان غيرها من طبقات الامم ، لم نجد من العسير الوقوع على أحزان الطبقات المستنيرة المتعلمة المتوسطة الحال ، طبقات الموظفين وصغار الملاك والتجار ، الذين هم الى الفاقة أقرب منهم الى الثراء . فالغالب في هؤلاء أن يكونوا ضائقين بحياتهم متبرمين ساخطين ، لانهم لا يرون فيها كفاء كفاياتهم ومعلوماتهم ومحصولهم من المعارف وما

يؤدون من الخدمات والنفع للغير . وزد على ذلك تطلعهم الى الحياة الكبيرة المترفة التى يتطلعون اليها من كثب ، عاجزين عنها فى كثير من اللوعة والتحسر ، بل والحسد لاصحابها أيضا

والنظرة الى تاريخ الاشترا كية الحمراء تغنى لادراك انها لم تكن لها من الدوافع الاصيلة الا مثل هذه العواطف التى تشعر بها الطبقات المتوسطة ، التى هى أكثر ادرا كا لقيمتها وحقوقها ، رغم ان الطبقات الاخيرة — أعنى العمال والفلاحين — هى التى كان لها الاثر الظاهر فى ثورة الاشترا كيين . ولا تزال مبادئهم فى كل بلد تغزو كثيرا من القلوب وتتحدى كثيرا من الانظمة القائمة ، وأكبر الخطر الآن هو أن تتفشى فى العالم هذه المبادىء مبالغا فيها كما يبالغ فيها فى روسيا الشيوعية ، ومع ذلك يبدو ان هذه غاية منتظرة لروح التبرم التى تسود العالم فى معظم طبقاته هذه الايام ، واذا كانت الشعوب المحكومة بالاقوى منها آخذة همتها الى التحرر من الرق فان طبقات الامم المتحررة نفسها قد أخذت تثور على فوارق المجتمع التى تضع الحواجز بين طبقات الناس . !

أجل ، هذه أظهر أحزان الطبقات المتوسطة من النوع البشري ، ويمكن تلخيصها فى كلمة « الحرمان » فاذا نظرنا الى الطبقة الاولى من الناس ، طائفة المترفين . وجدنا هذه تنقسم قسمين . أحدهما جاءته الثروة تجرر أذيالها فى غير جهد . ورثها ميراثا . ولا يعنيه الا أن يستعين بها على قضاء أوطاره من حياة ناعمة لا ينغصها عمل ولا شعور بالمسئولية . والآخر حصل ثروته أو ورثها أيضا ولكنه دائب فى العمل مثقل كاهله بالتبعات الجسام

أما الصنف الاول ولنسمه « الهانىء » فانه معرض دائما لان تفقده حياته الهينة كل شعور بالواجب نحو الآخرين ، وهو لذلك فاقد للثقة بالنفس والاعتماد عليها . مهدد بأن يقع فريسة لسوء التقدير ويذهب ضحية للمخاتلات ، بل وهو فى خطر من نفسه غير ذلك . هو الاستسلام للوهم ، والاندفاع أمام التيار الغريزى الى حيث تفسد نفسه وتتلاشى ارادته ، وهذا ينتهى به غالبا الى تدهور خلقى شائن يسلمه الى براثن « النورستانيا » اللعينة ، وهى مرض عصبي عضال ، لم يعرف إلا بعد الحرب . وهنالك الطامة الكبرى ، اذ تصبح حياة المريض ودنياه زاخرة بالاحزان المتصلة المستحكمة الحلقات

أما الصنف الثانى من طبقات الموسرين ، الذي يعنى بالعمل ويضطلع بالتبعات . فان الغالب فى هؤلاء تضخم الأنانية ، حتى ليصبح الواحد منهم أبخل على نفسه من نفسه . ! وهم بذلك خاسرون حب الناس ، وان كانوا فى الظاهر موضع الحفاوة والتبجيل أينما راحوا وغدوا . ويستطيع القارىء أن يصور لنفسه أحزان الرجل الذى يشعر بالمحيط حوله يكن له كراهية شديدة ومقتا هائلا ! غير ما يظهر له

***

والآن ... بعد أن أجملنا المامة عاجلة بأطراف الحديث ، نري من اللازم الاشارة الى احزان الطوائف الدينية والاقليمية واللونية أيضا . فأحزان اليهود معروفة مشهورة . حتى انهم يريقون الدماء ويثيرون العجاج في سبيل حصولهم على وطن قومى معترف به من أصحاب الديانات الأخرى ومنذ أمد غير بعيد أخرج منهم عنوة رهط كبير عن ديارهم ، وجردوا عن متاعهم ونشبهم . وأحزان المنبوذين فى الهند معروفة مشهورة الأخبار ، حتى انهم يحرمون كل الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية التى يتمتع بها غيرهم من الطوائف والنحل . ونسمع الآن أن الزعيم الهندي الأكبر يصوم من أجل انصاف قضيتهم ، ويناصرها بكل ما أوتى من قوة الايمان بالحق.! وهنالك زنوج أمريكا الحمر ، والسود ، محرومون كثيراً من الحقوق ايضا . رغم أن منهم أبطالا كثيرين ونوابغ أفذاذاً فى مختلف الميادين والحرف

احمد فتحى





الحقيقة

فصل من كتاب « المسالك الجديدة فى العلم » للاستاذ ارثر ادنجتون أستاذ الفلك والفلسفة التجريبية بجامعة كمبردج وترجمة الاستاذ رمسيس شحاتة

دعنا ياسيدى القارىء نسأل أنفسنا هذا السؤال :

ما هى طبيعة الحقيقة . هل هى مادية ، أم روحية ، أم مزيج من الاثنين ؟ ورغم اننى كثيرا ما بينت كراهيتى لكلمة « حقيقة » لأنها غالباً ما تعقد الموقف فقد اضطررت لأن أضع السؤال السابق على هذه الصورة لأنها الصورة التى يوضع فيها عادة ولكن ذلك سوف لا يمنعنى عن أن أجيب على ما يرمى اليه القارىء وما يمكن أن يقصده بسؤال كهذا حسب اعتقادى

ولكن دعنا أولا نتأمل سؤالا آخر ربما كان فى جوابه ايضاح كثير للمسألة . وهذا السؤال نضعه على الصورة الآتية : هل المحيط مكون من الماء أو من الأمواج أو منهما معاً ؟ . لقد أكد لى بعض الزملاء فى أثناء رحلة فى المحيط الأطلنطى أن المحيط لايمكن أن يكون إلا مكونا من الأمواج ولكن ذلك لايمنعنى من الاعتقاد ان المحيط مكون من الماء فى الواقع . ونحن اذا سلمنا وقدرنا أن طبيعة المحيط مائية سوف لا نجد على الأقل من يعارضنا فى ذلك مؤكدا أن طبيعة المحيط على العكس مما نقول موجية أو انها مزدوجة جزء من الماء وجزء من الامواج مثلا . وبالمثل أعتقد ان طبيعة الحقيقة روحية وليست مادية كما انها ليست مزدوجا ماديا روحيا وهذا يرجعنا إلى السؤال الأول . اننى لا أسلم أبداً بالغرض القائل أن طبيعة الحقيقة يمكن أن تكون إلى درجة معينة مادية لأنى أعتقد أن الفكرة والصورة الجديدة التى يعطيها العلم الحديث للمادة الآن تجعل ربط صفة « المادية » بالاسم « حقيقة » أمر ليس له معنى

وفى تعبيرنا لكلمة مادى — أو بلفظ أدق ومعنى أضبط فيزيكى — بأنها تدل على مايمكن أن ندركه عن طريق التجارب الحسية فى العالم الخارجى نرى أنها تناظر الأمواج لا الماء فى محيط الحقيقة . إن جوابى على السؤال لاينكر وجود الكون والعالم الفيزيكى كما ان الاجابة بأن المحيط مكون من الماء لاينكر وجود الأمواج . انما نحن نصل إلى الطبيعة الداخلية للاشياء عن طريق

التحليل الآتى : — إن الموجة كالعالم الفيزيكى أو المادى الترمزى عبارة عن معنى أجوف لايمكن أن يحوى داخله أى شيء . اننا نستطيع أن نكون أمواجا من الماء أو من الهواء أو من الأثير أو حسب نظريتى النسبية والكوانتم أمواجا من الاحتمال . وهكذا يبقى علينا حتى بعد أن ترشدنا الفيزيكا الى الامواج أن نعين ما تحويه هذه الأمواج وذلك بطريق آخر من طرق المعرفة غير طريق الفيزيكا

وإذا كنت ياسيدى القاريء ستفهم من هذا أن علاقة المظهر الروحى للتجربة بمظهرها الفيزيكى كعلاقة الماء بالشكل التموجى فانى أستطيع أن أتركك لأن تحدد بنفسك اجابتك على السؤال الذى سقناه فى أول البحث وبذلك أتحاشى كل سوء فهم ممكن . ان المهم هو كما ترى أن مظهرى التجربة يشتبكان الآن معاً دون أن يطغى أيهما على مكان الآخر . وعلى ذلك فانه يظهر لنا كما لو أن الفهم الحديث للكون الفيزيكى يترك مختارا محلا واسعاً لحقيقة الروح والوعى

وبتسليمنا فقط بوجهين للتجربة الوجه المادى والوجه الروحى فاننا لابد بطبيعة الحال أن نعطى كلا منهما معنى ماجدا . فنحن لانستطيع أن نتصور أن الأساس اللامادى للرموز الفيزيكية واضح فى أي مكان آخر قدر وضوحه فى حالة تلك الرموز الفيزيكية التى يمكن أن تعبر عنا . ودون أن نقيد أنفسنا بأي تعميم نظرى لا نستطيع إلا أن نسمى هذا الأساس اللامادي إلا روحيا مما يتفق والسبيل الوحيد الذى لدينا لمعرفة حقيقته

ولكى نري الفكرة بأجمعها دعنا نتأمل أيها القاريء كيف تدخل أنت فى سلسلة المعرفة . اننى أستطيع أن أصنفك حسب البحث العلمى كجزء من الكون الفيزيكى وأن أعين فى المكان والزمان وأن أعين تركيبك الكيماوي و . . . الخ والمعلومات أو المعرفة التى يمكن أن أجمعها بهذه الطريقة معرفة غير مباشرة لأننى حصلت عليها — ككل تجاربى الحسية — طريق التغيرات الفيزيكية فى جهازي العصبى . ولكى أعطى هذه المعرفة أضبط الاشكال وأدق الصور يجب على أن أستعمل لذلك رموز الفيزيكا الرياضية والمعادلات التى تربط هذه الرموز ببعضها . قد يكون كل ذلك صورة مدهشة لك ولكن لاشك يشمل كل مايمكن أن أجمعه من المعرفة عنك . اننى أعتقد انه الى جانب ذلك الجزء من مخك الذى يشبهه الفسيولوجيون على الاخص كأنه « أنت » هناك شيء آخر . لست فقط ذلك التركيب التى تضعه وتعبر عنه تلك الرموز الفيزيكية انما أيضا « ذلك الشيء الذى يعنيه الحق وله يهتم » والذى يجب علينا بضرورة الامر أن نسلم بوجوده منذ بدأ تساؤلنا وبحثنا وما كنت لأحاضرك الآن مالم اكن متأكدا من ذلك . ومعرفتى لك هذه أبعد من معرفتى عن بنائك الفيزيكى لاننى حصلت عليها جزئيا من مظاهرك وسلوكك الفيزيكى وجزئيا من معرفتى المباشرة لما يمكن أن تعنيه هذه الظواهر فى حالتى شخصيا . وكما ترى ان المقصد قريب ولو

أن الرحلة الطويلة . ان هذه المعرفة ليست من النوع الرمزى لان الطبيعة التى أعطيك اياها بناءا عنها تتكون من خواص معروفة لى فى عقلى دون أى تدخل حسى فى ذلك

والآن الى أى حد تتأثر الغريزة الحديثة بهذا الفهم وهذه الفكرة ، اننى اعتقد أنها تتأثر بالشكل الآتى ... إن فلسفة معينة تدعى أثر طبيعة المنضدة مثلا معروفة الى عقليا دون أن تتدخل فى تلك المعرفة أي عملية حسية كانت . وعلى النحو كل من اطلع على نظرية النسبية لابد أنه قد اصطدم بتلك العقيدة الذائعة وهى أن المكان معروف لنا عقليا دون تدخل أي عملية حسية فى ذلك ويرجع الفضل الى نظريتى النسبية والكوانتم فى استئصال هذه العقيدة من الفيزيكا واستبدالها بفكرة المعرفة الرمزية التى تلعب دوراً هاما فى هذا البحث

ولعلك الآن ياسيدى القارىء تود أن تسألنى عما اذا كانت تمس الطبيعة الروحية التى لذرات والكترونات المخ الحى تتعداها الى كل الذرات والالكترونات التى فى الكون . وأنا أجيب على ذلك بأنه ليس من المناسب ان نتكلم عن الذرات والالكترونات من هذه الناحية وبهذه الكيفية . انه من الواضح لنا أن وعينا مرتبط بجزء من المخ ولكننا لاندعى أن عنصراً ما من عناصر ذلك الوعى مرتبط بنوع ما من الذرات التى من المخ . فعناصر الوعى هذه ليست الا افكارا معينة واحساسات خاصة بينما عناصر خلية المخ هى الذرات او الالكترونات وهاتان المجموعتان من العناصر لا توازى أو تناظر بينهما . وعلى ذلك بينما أعتقد أن وراء الكون الفيزيكى ميدانا روحيا لأظن اننى اعتقد ان هذا الميدان الروحى موزع بحيث تتناسب اجزاؤه على كل جزء من المكان او الزمن ·

والنتيجة الاخيرة التى أصل اليها هى انه رغم أن البحث فى معضلة التجربة او الحقيقة يقودنا فى آخر الأمر الى حجاب أو ستار من الرموز فهناك معرفة مباشرة موجودة فى عقول وامخاخ الكائنات الواعية ترفع هذا الحجاب فى اماكن معينه وما نستطيع أن نراه خلال تلك الفتحات ذا طبيعة روحية وعقلية أما فيما عدا ذلك فنحن لانرى إلا الحجاب

لقد ابتعدنا فى الوقت الحاضر كثيرا عن تلك الأيام المريحة السهلة التى كنا فيها رغم ما كنا نشعر به من جهل حيال دقائق وتفاصيل بناء المادة بل نعتقد اننا انفسنا معضلات خفية عويصة ليس للعقل أن يسبر غورها وفى ذلك الوقت كان يخيل لنا جميعا اننا نعرف حقا ما يمكن أن تكونه طبيعة هذه المنضدة مثلا . انها كانت عبارة عن المادة تلك الحقيقة العامة التى يدركها الجميع أتم ادراك ولكن لا . انه خطأ فاحش ان نتصور اننا نعرف قليلا عن عقولنا وامخاخنا مع انه هنا قبل أى مكان آخر تبدأ المعرفة . اما مايتعلق بالاشياء الخارجية فاننا ندرسها ونفحصها بواسطة العلم ولكننا لانستطيع أن « نعرفها » حقا . إن تتبعنا لهذه الاشياء الخارجية هنا قد قادنا من المادة الصلبة الى الجزيئات ومن الجزيئات الى شحنات كهربائية موزعة مبعثرة ومن هذه الشحنات الى امواج الاحتمال

ومن يدري ماذا يكون بعد ذلك ؟

ان هذا لايؤدى الى العروضية المطلقه « Su lyeatinim » ان الاشياء الفيزيكية حسب فهى هى أيضا ماهى حسب فهمك انت أيضا فهناك عالم خارجى ليس جزءا من مخ أينا ولكن الذى نشترك فيه هو ذلك الجزء المحايد الذى نشأت فيه أسس التجربة . اننى اعتقد انه ليس هناك أقل شك فى ان فكرة العلماء الآن عن العالم الخارجى اكثر

من القرن السابق حيث كان كل تفسير الظواهر الطبيعية يستند الى العقيدة الراسخة بأنه لايمكن يوجد شيء مالم يمكن للمهندس أن يصنع مثالا له . ان المادية الجافة التى كانت ترمى الى اختزال الكون وكل مافيه من عضوي او غير عضوى إلى نوع من العجلات والاقواس أوغيرها من الحيل قد اختفت تماما . بل ان التفسير الميكانيكى للجاذبية اوالكهربائية قد أصبح الآن ممايستدعي الضحك انك تستطيع أن تسلم الفيزيكيين الآن العقل البشري وأنت آمن انهم سوف لايكتشفون فيه رحى طاحون أو شيئا كهذا ولكن يحسن بنا أن لانبالغ فى تقدير هذه العلاقات الحسنة والعوارض الطيبة فى الفيزيكا الحديثة لأن استبداد المهندس قد اعقبه استبداد الرياضيين وهناك على الأقل رأى عام يزداد يوما من يوم وهو أن الرياضى سيد أقل استبدادا من المهندس لأنه لايدعى فهما اعمق مما تصوره رموزه

ولقد اشرت فى كتاب سابق الى عادة للفيزيكيين لاأفهمها وهى اعتبار عملية الخلق كأنها من عمل عالم رياضى ومن الممكن أن يكون التهكم الذي ورد فى تلك الصفحات اقل لذعا الآن مما كان وقت ظهورها . اننى لم أكن استطيع أن اتنبأ وقتئذ أن زميلا لى قد يدلى جديا بوجه نظر تجعل « المهندس الأعظم للكون يظهر كرياضى بحت وذلك حسب شهادة خليفته » انجنز قدنبذه وهو « انه من الممكن أن تعتبر أن الرياضى لايرى الطبيعة إلا خلال النظارات التى اصطنعها لنفسه » .

وجينز فى نبذه لما يظهر لى كأنه الرأى الصحيح يشير الى فشل النظريات الشبه البشرية ثم حيل المهندس من يعدوا فى تفسير الكون ويوزاى بينهما وبين ما أصابته الفكرة الرياضية من نجاح فى ذلك . وهناك عاملان يفسران فى رأى النجاح النسبى الذى اصابه الرياضى وذلك انه قبل كل شيء المروض المحترف للرموز وفى استطاعته أن يعالج كميات مجهولة منها وأن يقوم بعمليات رياضية مجهولة أيضا . ومن الواضح انه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يساعدنا فى استخلاص شيء من المعرفة من بين كثير من المجاهيل . ولكن السبب الرئيس فى انتصاره على انصاره وزملائه هو اننا سمحنا له أن يملى علينا شروط المسابقة . ان مصير أي نظرية عن الكون موكول الى اختيار عددى فهل فى ذلك حق وانصاف ! أنت لست متأكدا ان الرياضى يفهم العالم خيرا من الشاعر او المتصوف وربما كانت كل بضاعته انه يجيد الجمع

مرض السرطان

دراسة تحليلية لهذا المرض الوبيل . آخر ما وصل اليه العلم الحديث في تفسيره وهل هناك علاج حاسم له

بقلم الاستاذ رمسيس شحاته

يكفى الان أن يذكر أمام العامة من الناس اسم السرطان لنري مقدار اشمئزازهم وكراهيتهم المتمكنة لهذا المرض الوبيل . بل إن مجرد ذكر ذلك الاسم كفيل وحده لانفاذ الرعب فى قلب السامع الذى لايتأخر فى أغلب الأحيان عن الاستعاذة بالله والانبياء والاولياء والصالحين من شر ذلك المرض وكأن مجرد ذكره كاف لأن يجعل السامع عرضة للوقوع فى حبائله كما لو كان شيطانا رجيما

والادهى انك لو سألت زيدا من الناس عن ذلك المرض أفاض لك فى الشرح والكلام وامعن فى الوصف والتدقيق كأنه الخبير العليم بكل بواطن المسألة ودقائقها . ولئن فاته أن يزودك ببعض معلوماته فسوف لاينسى أبدا أن يؤكد لك أن هذا المرض هو معضلة الطب الحديث ومشكلة المسائل فيه وهو قاهر الأطباء ومدوخهم مهما ادعى مدعوهم ومهما كثرت آمالهم . لعمرى ما يقدر ذلك الشخص ما فى ذلك من تهكم وزراية بطائفة من الناس لو علم لأعطاهم كل ثقته ولشفعهم بكل عنايته وعطفه

انه لمن الغريب حقا أن يعنى الجمهور كل هذه العناية بمرض هو فى الواقع أشد الامراض غموضا وابهاما بل اكبرها تعقيدا فى أعين الطب والأطباء . وأكبر ماتخشاه أن يكون الجمهور ليس على ما هوعليه من تشوق الى تمقط أخبار هذا المرض وتتطور الابحاث والنظريات المتعلقة به إلا تشفيا من الطب وشماتة فى الأطباء . فلو كانت هذه حقيقة ميل الجمهور فابشر إذن بسوء العاقبة والحق لنا عندئذ أن نقول ان الطب ورجاله قد لاقوا اقبح الجزاء على خدماتهم المتوالية المتعددة . على أنه مما يبعث فى نفوسنا بعض العزاء أن نلاحظ أن هؤلاء هم فى الواقع المشوق الاساسى للجمهور فى التطلع إلى اخبار هذا المرض واليهم يرجع كل الفضل فى كل مايعرفه الجمهور ومايتناقله من المعلومات عن هذا المرض . واغلب الظن أن السبب الذي دفع بهم الى القيام بهذه الدعاية الواسعة رغم ما قد

ينشأ عنها من خطر محقق لو أساء الدهماء استعمالهـا وتوجيهها هو تنبيهم إلى شر ذلك المرض وعوارضه رجاء الحصول على مساعدتهم فى التغلب عليه وقهره بل استئصال شأفته نهائيا

مكان السرطان بين الامراض عامة

والسرطان من أخبث الامراض وأشدها فتكا ويزيد المسألة تعقيدا وخطرا أننا لانعرف عنه إلا القليل ولكن مهما كان جهلنا بأمره ومهما تضاربت النظريات فى تفسيره ومحاولة استجلاء حقيقته والكشف عن سره فلدينا من المعلومات مايسمح لنا بأن نضعه فى مكانه الحقيقى بين الامراض وهذه الخطوة وإن بدت فى أول الأمر تافهة هينة فهى أول سهم صائب سدد إلى قلب المعضلة ومن يدري ربما كان هذا السهم هو كل مايلزم من الأسلحة والأساليب لكشف المتار عن غوامض المعضلة نهائيا

مما لاشك فيه أن السرطان من الأمراض التى تطلق عليها اسم « الأورام » وتتميز هذه الامراض عن غيرها بانها ليست ناشئة بالضرورة عن الميكروبات . اى انها بعبارة أخرى ليست التهابا . فالسل مثلا مرض قتال وهو يضارع السرطان من حيث فتكه وبطشه ولكنه مرض التهابى ناشىء عن التهاب الأجزاء المصابة به كالرئة مثلا فى حالة السل الرئوي وهذا الالتهاب نتيجة حتمية لوجود ميكروب السل فى الرئة نفسها . فليس من الممكن ايجاد اصابة السل دون إدخال الميكروب الخاص به الى الجسم بينما نحن لانعرف للسرطان ميكروبا ونكاد نقطع فى أغلب الحالات بعدم وجود أى نوع من الميكروبات فيه

وتتميز الأورام عن بقية الأمراض فوق مابينا من اختلاف فى منشئها فى كيفية تطورها فالميزة الكبرى التى تنفرد بها الاورام هى قدرتها على النمو والزيادة المضطردة واستقلال ذلك النمو عن نمو الجسم نفسه فليس هناك أى علاقة بينهما . فاذا أصاب السرطان طرف الأنف مثلا شاهدت ذلك الطرف يأخذ فى النمو والازدياد مع عدم تناسب نموه مع النمو العام للعضو ويستمر الورم فى النمو طالما بقى المصاب به على قيد الحياة . ولقد لوحظ فى بعض الحالات ان نمو الورم قد فاق نمو الجسم بأجمعه كما أمكن مشاهدة عدة حالات تعدي فيها وزن الورم بعد فصله وزن الشخص الذى كان يحمله

ومن المهم أن تفرق بين نمو الاورام وبين ما يصحب بعض الالتهابات من انتفاخ وهو مايطلق عليه الناس عادة كلمة ورم وهناك فرق واضح بين الزيادتين . فلو تأملنا قليلا من سبب مانلاحظه من نمو فى حالة الاورام لوجدنا أنه ناشىء عن تضاعف الخلايا المكونة له فى العدد وكبرها فى

الحجم فنحن نعرف أن جسم الانسان مكون من خلايا . وهذه الخلايا تتوالد بالانقسام وهى فى نمو دائم . ومن هنا نرى أن الورم هو فى الواقع مجرد زيادة الخلايا المكونة لعضو ما أو لأى جزء من اجزاء الجسم زيادة لاتتناسب ونمو الجسم عادة وعلى ذلك فانه من الممكن أن نحصل على أنواع مختلفة من الأورام . فاذا تضاعفت الخلايا الدهنية كان الورم دهنيا وإذا تضاعفت الخلايا العضلية أو العظمية أو الليفية أو العصبية كان الورم عضليا أو عظميا أو ليفيا أو عصبيا على التوالى

أما اذا تأملنا السبب فى ما نشاهده من انتفاخ فى حالة الالتهابات مثل الخراج أو الدمل مثلا رأينا أن هذا الورم ظاهرى فقط وانه ليس ناشئا عن زيادة فى عدد خلايا الجزء المصاب به انما ناشىء عن زيادة عدد الخلايا الدفاعية الواردة الى هذه النقطة مع تيار الدم . وواضح أن السبب فى ورود هذه الخلايا الى النقطة الملتهبة هو محاولة الجسم التخلص من سبب الالتهاب وهو الميكروبات فى هذه الحالة . فاذا اعترض معترض قائلا ان الورم فى حالة الالتهاب ناشىء هو الآخر عن زيادة عدد الخلايا الموجودة فى نقطة الالتهاب وهو بذلك شبيه بالورم فى حالة الاورام امكننا أن نرد على ذلك بسهولة وذلك بالرجوع الى نوع الخلايا الزائدة فهى فى حالة الورم من نفس خلايا العضو المصاب وهى على ذلك عرضة للاختلاف فيما بينها ويتبع ذلك الاختلاف موضع الورم ثم تركيب العضو المصاب به اما الورم الناشىء عن الالتهاب فسببه زيادة فى عدد الخلايا الدفاعية فقط وهى موجودة فى جميع اجزاء الجسم وخصوصا فى الدم وعلى ذلك فجميع اورام الالتهابات متشابها لأن أساسها نوع واحد من الخلايا وهى الخلايا الدفاعية كما بينا

لقد كان من الميسور حسم الجدال سريعا لو لم نكن نطمع من ورائه فى بعض الايضاح . ليس هناك سبيل الى الخلط بين النمو فى حالة الاورام والانتفاخ فى حالة الالتهابات اذ انه من الممكن التميز بينهما بالعين العادية ودون أن ندفع التحليل الى مستوى الخلايا هذا إذا لم يصل الالتهاب الى درجة التقرح . فالالتهاب عادة يصحبه ارتفاع فى حرارة الجزء الملتهب واحمراره مما لايشاهد فى أغلب الأورام

مكان السرطان بين الاورام

رأينا فيما تقدم أن السرطان ورم وهو على هذا الاعتبار كالورم الذي يصيب أطراف أصابع القدم فى بعض الاحيان ويسمى عادة « بالكالو » ولكن ما أشد الفرق بين المرضين وما أبعدهما البعض عن الآخر من كل النواحى تقريبا . إذا كان السرطان ورما فهو ورم من نوع خاص ليس كبقية الأورام وهذا النوع من الاورام اتفق على تسميته بالأورام الخبيثة دلالة على خطرها واشارة الى

فتكها وكما أمكننا تقسيم الأمراض الى امراض التهابية وامراض ورمية فانه من السهل علينا أن تميز فى الامراض الورمية بين نوعين من الاورام اولها الاورام العادية ثم الاورام الخبيثة . ورائدنا فى هذا التميز هو سير هذه الأورام وتطورها

نلاحظ اننا اذا استأصلنا ورما عاديا وكان الاستئصال كافيا فان الورم يزول ولا يعاود الظهور بالعضو المريض ثانية . مثال ذلك الزوائد التى تظهر احيانا على الرقبة أو الجبهة أو طرف الأنف والتى تزول ويختفى اثرها بمجرد ازالتها واستئصالها اى التى يكفى للشفاء منها التخلص منها أولا . أما الاورام الخبيثة فليس الاستئصال هو علاجها النهائى فكم من سرطان عاود المريض فى نفس الجزء الذى كان به وذلك بعد استئصاله . إن شرط نجاح الاستئصال هو أن يستأصل الجزء المصاب وأن يستأصل حوله جزء كبير مما لم تظهر فيه الاصابة بعد فوق استئصال الغدد اللمفاوية المتعلقه به مما يتعذر عمله فى أغلب الاحيان

مما تقدم نرى أن الأورام الخبيثة تمتاز بقدرتها على الانتقال من جزء الى جزء والى تخلل الاجزاء المجاورة لها مادة تشعباتها فى هذه الاجزاء مما لايلاحظ فى الأورام العادية . فسرطان حلمة الثدى كغيره من السرطانات قادر على مد تشعباته فى داخل الثدى نفسه مصليا بذلك مايجاوره من الأنسجة ومسببا لها من الضرر والخسارة الشىء الجسيم . وقدرة التخلل هذه مقصورة على الأورام الخبيثة وهى التى تجعل عملية الاستئصال الكامل التام تقرب من المستحيل فى كثير من الأحيان

والميزة الكبرى التى عتاز بها الأورام الخبيثة هى قدرتها على العدوي عن بعد وتكوين مايعرف بالبؤر البعيدة . فسرطان المستقيم مثلا له القدرة على تحقيق سرطان الكبد أو المعدة أو المثانة أو البروستاتة وربما الكلى أيضا . وليس ذلك عن طريق الانتقال بواسطة التشعب والتخلل السابق الذكر ولكن عن طريق العدوى المباشرة وذلك بانتقال الخلايا السرطانية فى الأوعية اللمفاوية والغدد اللمفاوية والدم احيانا من العضو المصاب إلى بقية الاعضاء الاخرى . وهذه الميزة هى فى الواقع الحد الفاصل بين الاورام العادية والأورام الخبيثة . وهى المرجع النهائى فى التمييز بينهما والسرطان هو أحد هذه الأورام الخبيثة ولكن الطب يعرف غيره من الاورام التى تشترك وإياه فى هذه الخاصة وإن كان هو الممثل الرئيس لهذه المجموعة من الاورام

مكان السرطان بين الامراض الخبيثة

رأينا أن السرطان هو أحد الاورام الخبيثة وكما كان من السهل أن نعين هذه الفئة من الاورام وأن نحصرها فى حالات معينة بما أوصلنا التحليل العلمى إلى التميز بين خواصها العامة تميزا قاطعا

فانه من الميسور أيضا التفريق بين انوع هذه الاورام الخبيثة المختلفة . ولا يكفى أن نحدد إذا كان الورم خبيثا أو عاديا لمعرفة كل خواصه إنما يجب أن ندفع التحديد إلى أبعد من ذلك اذا كنا نريد حقيقة أن نحلل المسألة تحليلا علميا صحيحا . يعلمنا علم الهستولوجية أو الانسجة — ويؤيده فى ذلك تأييدا قاطعا علم الاجنة — ان جسم الانسان يمكن أن نميز فيه بسهولة بين نوعين من الخلايا ليس من سبيل إلى الخلط بينهما فانه من الحالات النادرة أن نري تحول خلايا أيهما إلى خلايا الآخر كما أن الفرق بينهما من حيث الشكل والتركيب والعمل واضح ليس من الميسور اهماله او تخطيه . اما هذان النوعان من الخلايا فيحتل أولها الخلايا المكونة للانسجة المخاطية على اختلاف انواعها وتشمل خلايا الجلد ثم الطبقة المبطنة للقناة الهضمية من أولها إلى آخرها ثم خلايا جميع الغدد الموجودة فى الجسم وهى على وجه العموم خلايا افرازية كما يسهل أن نرى ذلك بمجرد ملاحظة توزيعها فى الجسم . وإلى جانب هذه الانسجة المخاطية يشمل هذا الفريق الاول من الخلايا المكونة للجهاز العصبي . ويلاحظ أن جميع هذه الانسجة سواء النسيج المخاطى أو النسيج العصبي صادرة عن الغلاف الخارجي للجنين Ectoderme بينما نرى أن خلايا النوع الثانى وهو المعروف بالانسجة الواصلة Tissue Comjonctive تختلف من الخلايا الآنفة الذكر من حيث الشكل ثم العمل الى اختلافها من حيث الاصل والمصدر الجنسى ومعظم هذه الخلايا تقوم بعملية التغذية بالنسبة للخلايا الأخرى ثم حفظها واعطاء الاعضاء شكلها الخاص ووضعها المناسب . أما من حيث الاصل فانها صادرة عن الغلاف المتوسط فى الجنين Mesenchyme

الآن وقد رأينا فى العجالة المتقدمة كيفية بناء الجسم البشرى على وجه العموم وكيف انه من الممكن أن نميز فى خلاياه المختلفة نوعين رئيسين من الخلايا نريد أن نعرف أيهما عرضة للاصابة بالسرطان . ولو تأملنا قليلا الاسم اللاتينى الذى يطلق على السرطان لأمكننا أن نعرف على وجه التقريب أى النوعين الآتيين يمكن اصابته بالسرطان . فكل سرطان يسمى بوجه عام Epitheliuma ومن الميسور أن نري علاقة هذه الكلمة بكلمة Epi theliam التى أطلقناها على الأنسجة المخاطية وعلى ذلك نرى أن السرطان لايصيب إلا خلايا النوعين الأول وهو لا يصيبها جميعاً بل نستثنى منها الخلايا العصبية . وليس معنى ذلك ان السرطان لا يصيب الخلايا العصبية وانما اصطلح على أن يسمى مثل هذا السرطان بلفظ علمى آخر وهو جليوم

وهناك ورم خبيث آخر يشابه السرطان كثيرا ولكنه يصيب النوع الثانى من الخلايا الداخلية وهو يسمى حسب الاصطلاح اللاتينى ساركوما . وسوف لا نتعرض له فيما يلى ولو أن وجه الشبه بينه وبين السرطان عظيم وذلك رجاء التبسيط والوضوح

مما تقدم نري أن الخلايا التى يصيبها السرطان كلها خلايا افرازية وهى موزعة فى جميع أجزاء الجسم إذ توجد على طول القناة الهضمية من أولها إلى آخرها كما انها تكون الجزء الرئيس فى كل

الأعضاء الداخلية تقريباً مثل الكبد والبنكرياس والكلى وغيرها زائدا الى ذلك انها العنصر الأول فى تركيب الغدد على اختلاف أنواعها وأوضاعها . من هنا نشأ امكان وجود السرطان فى أى عضو من أعضاء الجسم حتى فى الرئة

تطور السرطان

أول ما يصيب السرطان خلية من الخلايا يلاحظ عليها اسراع فى النمو والانقسام إلى حد زائد بحيث تصبح وحدها أساساً لورم يمكن ادراكه وملاحظته بالعين المجردة على انها لا تستغرق فى ذلك وقتاً طويلا فقد يتم تكوين البؤرة فى أسابيع معدودة . ويشمل هذا النمو جميع أجزاء الخلية خصوصاً نواتها فتتضخم بحيث قد تشغل فى بعض الأحيان نصف حجم الخلية مع انها فى الحالات العادية لا تشغل إلا جزءاً ضئيلا من الخلية نفسها قد لا يتجاوز فى بعض الاحيان واحدا من مائة من الحجم الكلى للخلية . ويصحب هذا النمو تغير ظاهر فى تركيب الخلية . فهى وأن كانت تظل حافظة لتركيبها فى أثناء الادوار الأولى من المرض فانها تفقد كل أثر لهذا التركيب فى الأدوار الأخيرة بحيث يتعذر كثيرا معرفة نوع الخلية التى نشأت منها أولا . ولا ينحصر هذا التغير فى شكل الخلية وحجمها من حيث التضخم أو الكبر أو من حيث اختلاف نسب أجزائها عن النسب العادية بازدياد حجم النواة ازديادا ملحوظاً انما يتعداه إلى شكل الخلية نفسها إذ تذهب معالمه كما يتناول التغيير الأجزاء الأخرى المكونة للخلية وأخصها عصيات الكروماتين والتى يسمى مجموعها بالكوندريوم فتصبح أكبر قبولا للألوان فوق ظهور أشياء جديدة بالخلية لم تكن بها من قبل

ومن مثال ذلك المكونات الحافرية والقرنية التى تلاحظ فى نوع من أنواع سرطان الجلد

ويستمر الورم فى النمو والازدياد أولا بازدياد خلاياه لسرعة نموها وكثرة انقسامها وثانيا باصابة الخلايا الاخرى المجاورة له والتى سرعان ما تأخذ فى نمو والانقسام بدورها . ولو تأملنا قليلا ما ينشأ عن ازدياد هذا النمو واضطراده رأينا انه لابد وان يسبب نقصاً شديدا فى الأغذية الواردة الى الخلايا السرطانية الموجودة فى المنطقة الوسطى من الورم والتى لا تصل اليها الأغذية إلا بعد مرورها على المناطق الخارجية ويشتد هذا النقص شيئاً فشيئا ويشتد عوز تلك الخلايا إلى الغذاء حتى ينتهى بها العوز والحاجة فى آخر الأمر الى الاستشهاد فتموت جوعا وتنحل بذلك المناطق المتوسطة وتأخذ فى الزوال والتلاشى شيئاً فشيئا . وربما تخيل القارىء أن هذا هو فى الواقع أحد الأسلحة التى تسلحنا بها الطبيعة لمقاومة السرطان ولكنه لو تأمل قليلا لرأى ان ما يظهر لنا فى أول الأمر كأنه سلاح فى أيدينا وسهم صائب نصيب به سويداء قلب المرض ليس الا مدعماً

جبارا يصدده المرض الى صدورنا عن قرب وعن ثقة بالفوز والنصر

ان اشلاء الخلايا المستشهدة هي أصلح غذاء يمكن أن تجده الخلايا الأخرى لأن هذه الاشلاء مكونة من مواد عضوية لا فرق بينها وبين ما يدخل في بناء الخلية الحية من المواد العضوية وهي على ذلك سريعة الامتصاص أكيدة الفائدة الغذائية

ان انحلال المنطقة الوسطى يعقبه امتداد الاطراف وتشعبها امتدادا فظيعا وتشعبا شرها سريعا وذلك الامتداد وهذا التشعب هما الخطوة الأولى في تمكن المرض وتأصله

ويظل الحال على هذا المنوال والسرطان ينتقل من مجموعة من الخلايا الى المجموعات المجاورة له وهكذا الى أن يصل في آخر الأمر الى وعاء من الأوعية اللمفاوية أو الأوعية الدموية وهنا تحدث الطامة الكبرى فيتكون ما يعرف بالانتقال عن بعد أو Metastase وينتشر السرطان عندئذ لا عن طريق التأثير المباشر والامتداد من نقطة الى أخرى ولكن عن طريق البذر والتعميم موزعا مع السائل اللمفاوي أو الدم وهما يصلان الى كل جزء من أجزاء الجسم

الخلية السرطانية

ورب قارىء يعترض الآن قائلا : لقد اظهرت لنا السرطان كأنه داء من الادواء واشدها هولا ولست اري ذلك فماذا يهم انتشار السرطان وتحول خلايا الجسم كلها من خلايا عادية الى خلايا سرطانية . لا شك أن عدم التناسب في النمو له أبعد الاثر في جمال الجسم وتناسق اجزائها ولكن ليس الجمال هو كل شيء في الحياة وكأني به يريد أن يقول بل حسنا أن يصاب المرء بالسرطان اذ كان ذلك يضاعف عدد خلايا جسمه لأنه لاشك أنه كلما كثر عدد الخلايا وزادت قدرتها على الانتاج والعمل . في الحق ان اعتراضا كهذا اعتراض وجيه بل انه على جانب عظيم من الصدق والكياسة ولكنه لايلبث أن يتحول إلى أضحوكة لذيذة إذا امعنا في تحليله قليلا

قلنا ان تحول الخلايا العادية الى خلايا سرطانية يصحبه في الادوار المتقدمة من المرض تغير كامل في تركيب الخلايا وبديهي ان هذا التغير لايمكن أن يكون عديم الأثر في عمل الخلية فالواقع ان الخلية تستمر في أول الامر على أداء وظيفتها كما لو لم تكن أصيبت بالسرطان وقد يلاحظ عليها أحيانا زيادة ظاهرة في النشاط وانتاجا أكثر عن المعتاد ولكنها لاتلبث اذا اشتدبها التغيير أن تفقد القدرة على أداء عملها فقدانا تاما فتأملوا اذن هو ذا جسم الانسان قد أصبح كتلة من الخلايا التي لاتؤدى عملا . أفيستقيم أمر كهذا والحياة ؟!

إن الخلية السرطانية لاتفقد وظيفتها الأولى فحسب انما تكتسب بمجرد تسرطنها وظيفة جديدة

وهى افراز السموم الخاصة بها وهذه السموم فوق باعها الطويل فى نشر السرطان وتعميمه تقتل الخلايا التى تلحقها مسببة لها مايعرف بانحلال الأنسجة ، وناهيك عما لهـذه العملية من ضرر بالغ بالجسم . وهذه السموم فوق قتلها الخلايا تنتشر فى الجسم فتسبب له ضعفا عاما وهو مايسبب ما يعرف بالضعف العام الذي يسبق الموت عادة فى حالات السرطان . وقد يتسبب الموت بالسرطان عن غير هذا السبب فقد يؤدى النمو الى ضغط بعض الأعضاء الحساسة أو الى سد بعض الاوعية أو الامعاء مثلا مما يؤدى الى الموت قبل بلوغ الجسم الى حالة الضعف المشار اليها آنفا

أسباب السرطان

قد يعجب القارىء أن نتعرض الآن للكلام عن أسباب السرطان وقد سبق أن ذكرنا أن هذا هو لغز الطب الحديث ومسألة المسائل فيه على أن بحثنا لايشير الى مانعرف عن هذه الاسباب لايمكن الا أن يكون بحثا مبتوراً . فانا وان كنا نجهل الآن السبب الحقيقى للسرطان فلم نعدم أن نعرف له بعض المسببات المعينة . وإنا وان كنا نجهل على وجه الاطلاق حقيقة هذا المرض وطبيعته الداخلية فلدينا طرق عدة لتوليده وهى طرق أضحت من القوة بحيث لانستطيع الشك فيها فاذا كان سر السرطان الرئيس ما زال خافيا علينا فلا أقل من أن ننسبه الى مانعرف من الاسباب ومن يدرى ربما أظهرت الابحاث أن التعمق فى معرفة السرطان أمر لامحل له ولاداعى للبحث عن معرفته لانه يظهر الآن أننا نستطيع فى كل حالة نسبة السرطان الى سبب واحد قد يكون من الخير أن نسلم مبدئياً أنه السر المغلق الذى طال البحث عنه والتنقيب عن آثاره

لاشك أن النظرية المتقدمة فيها كثير من الجرأة وربما قلنا كثير من التعسف أيضا ولكن مما لاجدال فيه أن للسرطان أسبابا معينة وهذه الاسباب كلها تشير الى مسبب رئيس يمكننا عن حق احتمابه العامل الأول فى مرطنة الخلايا أو قل هو العامل الوحيد والسبيل المفرد لذلك

ولايمنعنا ماتقدم عن استعراض الأسباب التى سبق الاشارة اليها فذلك هو السبيل الوحيد على مانعتقد الى تحليل المسألة ودراستها دراسة مثمرة . وتنقسم هذه الاسباب الى شيع ثلاث : الاسباب الحيوية وهى التى تجعل من الميكروبات والطفيليات السبب الرئيس فى السرطان ، ثم الاسباب الكيماوية وهى التى تعزى السرطان الى وجود مواد كيماوية معينة بكثرة فى الجسم ، ثم الاسباب الفيزيكية وتعزى السرطان الى عوامل فيزيكية معينة

النظرية الحيوية

عند مابدأ البحث عن المسبب للسرطان اتجهت الأنظار بطبيعة الحال الى الميكروبات وكانت

إذ ذاك النظرية الميكروبية للامراض فى أوج عظمتها . وتشعب البحث من هـذه الناحية تشعباً عظيما ولكن على غير جـدوى . ولقد ساعد على تشعبه والاستمرار فيه ملاحظة الباحثين أن الأنسجة السرطانية تحتوى فى أغلب الحالات ان لم يكن بصفة مستمرة ميكروبات معينة واتجه الرأى إلى اعتبار أن هذه الميكروبات هى المسببة للسرطان ولكن لم يكن من الممكن التسليم بذلك إلا باجراء تجارب تكميلية إذ من يدرينا إذا كانت هذه الميكروبات تنشأ فى الانسجة السرطانية بعد تكونها لانها تعد وسطا صالحا لمعيشتها

وللفصل فى ذلك تعين أن تحقن هذه الميكروبات إلى جسم خال من السرطان فاذا أوجدت فيه سرطانا كان ذلك تأييداً شبه قاطع بالنظرية الميكروبية ولكن خيبة الامل فى تحقيق هذه التجربة دعت الباحثين إلى مضاعفة الجهود واستمرار البحث وما زال البحث الى اليوم مستمراً من هـذه الناحية ولقد سمحت الملاحظة المستمرة للانسجة السرطانية باكتشاف عدد لا بأس به من الميكروبات المختلفة وبقى علينا أن نعرف أى هذه الميكروبات هو المسبب حقيقة للمرض

ولقد أسعد الحظ كاتب هذه السطور برؤية باحث من الباحثين فى هذا الموضوع وأعنى به الأستاذ باجس أستاذ الطب التجريبى بجامعة مونبيليه بفرنسا وهو يؤيد نظرية أن السرطان ناشىء عن نفس الميكروب الذى يعطى السل أيضا أى باشلس كوخ . ولقد استطاع سرطنة جسم سليم بواسطة حقن هذا الميكروب له . ولكن الاستاذ باجس واحد من أولئك الذين يجعلون من ميكروب السل السبب الاول فى كل الامراض وهو واحد من أنصار مدرسة مونبيليه القديمة . ولاشك أن هذه المدرسة لها أثرها البارز فى تاريخ الطب فى العالم وقد تكون الآن على باب ثورة جديدة تهدد النظرية الميكروبية للامراض وتؤيد نظرية مدرسة مونبيليه ولكن ذلك لايكفى لأن يجعلنا نسلم بان السرطان مرض ميكروبى لأن ذلك يعوزه الاثبات والدليل

ونحن نلاحظ أن التفسير الذي تعطيه مدرسة مونبيليه ويعطيه الأستاذ باجس للسرطان يتفق اتفاقا بعيداً والنظرية الفيزيكية لانه وان كان ينسبه إلى ميكروب السل فانه لايعطى هذا الميكروب إلا دوراً ثانويا وسنرى ذلك عند التعرض للنظرية الفيزيكية

وقد نسبت للطفيليات نفس الدور الذى نسب فيما تقدم للميكروبات ونلاحظ أن هـذا لايفيد كثيرا فى الموقف فالفرق من الوجهة الحيوية ضئيل بين الميكروبات والطفيليات إذ لايتعدى الفرق فى الحجم من حيث إمكان رؤيتها بالعين المجردة أو بالمجهر . أما فيما عدا ذلك فتشترك الميكروبات والطفيليات فى كل الخواص على وجه التقريب ولقد لقيت النظرية الطفيلية نفس مالقيته النظرية الميكروبية من الصعاب والاعتراضات

نحن لانجزم بفشل النظرية الحيوية فان ذلك فى الواقع أمر سابق للاوان ومهما يكن من قيمة هذا الفشل فاننا لانستطيع أن نؤكد انه فشل نهائى فمن يدرى ماتجىء به الايام للنظرية الميكروبية على أن نظرة عامة للاتجاهات الطبية الحديثة ترينا أن النظرية الميكروبية قد فقدت كثيرا من أعوانها فوق أنها أصبحت الان كالعجوز الشمطاء لابد من جملة عكاكيز لتستند اليها . ان النوعية الميكروبية وهى العمود الفقرى للنظرية الميكروبية العامة تكاد تصبح أثراً بعد عين وليس من سبيل الى الاحتفاظ بها كما وضعها باستور فى أول الامر فانها تكاد تفلت إلى عالم النسيان وتصبح فى خبر كان

النظرية الكيماوية

وظفر السرطان بعناية الكيمائيين أيضا حين توفر على البحث فيه أساطين من البحاثين وعلماء الكيمياء ولم تكن نتائج هذه الابحاث أسعد حظا من النتائج التى وصلت اليه النظرية الحيوية . ولقد عزا بعض الكيماويين السرطان الى المنغنيز وذلك فى وقت كان المنغنيز فى أعين الكيماويين محور المادة الحية ومرجع نشاطها . وعزا الاستاذ كريستول من جامعة مونبلييه أيضا السرطان إلى غنى الاغذية بالزنك وعزا آخرون السرطان الى زيادة أو نقص فى عناصر أخرى كالرصاص وغيره على أن كل هذه الابحاث لم تؤد إلى نتيجة حاسمة

ولكن من بين المواد الكيماوية المختلفة التى عزى اليها السرطان نجد مادتين يستحقان ان نتأملهما على حدة اولهما القار او « الزفت » فلقد لاحظ اليابانيون أن العمال الذين تتعرض أقدامهم وأيديهم لهذه المادة لا يلبثون أن يصابوا بالسرطان ونسبة الاصابة بينهم مرتفعة بدرجة ملحوظة . واتجه الرأى عندئذ إلى اعتبار التعرض للقار سبب الاصابة ولاثبات ذلك عملت ابحاث تحليلية تتلخص فى تغطية الجسم المراد سرطنته بالقار وتركه مدة من الزمن على هذا الحال بعدها ينزع القار ثم تعاد العملية مرات متكررة لوحظ بعدها ظهور السرطان فى مكان التغطية . ظن الكيماويون فى أول الأمر أن المسألة تتعلق بخواص القار الكيماوية ولكن ظهر هناك تفسير جديد لا نتعرض له الآن رجاء وضعه فى مكانه فيما يلى

أما المادة الثانية فهى عبارة عن مشتق كيماوى من المركبات العضوية المكونة للحرارة . وهذه المواد موجوده بكثرة فى جسم الانسان لحاجتنا إلى الحرارة حاجة ملحة فوق ان تكوينها تشترك فيه أعضاء كثيرة مما يجعل هذه المواد موجودة فى أغلب أجزاء الجسم كله . والغريب ان التحول الكيمائى الذى يجب اجراؤه من المركبات الحرارية لتحويلها إلى المواد السالفة الذكر بسيط

جدا وهين إلى درجة بعيدة بحيث نستطيع أن ننسب حدوث هذا التحول الكيماوى إلى العوامل الفيزيكية التى يتعرض لها الجسم عادة . ونلاحظ فوق ذلك أن هذه المسألة تضع تحت أيدينا مفتاحا جديدا للمعضلة فهى تثير مشكلة التربة من جديد وما يكتنفها من المسائل العويصة والألغاز المعقدة . فمعروف ان المواد المرارية موجودة بوفرة فى الجسم البشرى عادة وهى موجودة على ذلك فى كل الأجسام على التساوى وفوق ذلك فان التحول الكيماوى المشار اليه آنفا تحويل بسيط قد لايتعدى فى بعض الحالات أكسدة بعض ذرات الايدروجين الموجودة فى تلك المركبات وعملية الأكسدة هذه عملية عادية كثيرة الحدوث فى الجسم البشرى فى الحالة الطبيعية مما يجعلنا نسلم بأن كل جسم لابد من احتوائه قدرا ما من هذه المواد المحولة ولكنها مع ذلك لا تسبب له السرطان وعندئذ نضطر اضطرارا الى التسليم بأن التربة ـ وهى عامل شخصى محض خاص بكل جسم ـ لابد انها تلعب دوراً ما فى مسألة التسرطن

والمهم فى مسألة التربة أنها تأييد جديد للنظرية الفيزيكية فلقد حاول العلماء الكيماويون منذ أمد بعيد وعلى رأسهم أساطين المدرسة الألمانية الحديثة تمثيل الجسم البشرى بمعمل كيماوي ولا نقول انهم أخفقوا فى ذلك اخفاقا تاما على أن النجاح الذى أصابوه فى هذه الناحية لم يعادل ماأصابته النظرية الفيزيكية من نجاح فى تفسير الظواهر الحيوية ونعنى بها النظرية الكلوئيدية للاستاذ لوب الامريكى والاستاذ أوجست لومير الفرنسى ، ومهما يكن الأمر فان التربة واختلافها مما يمكن اسناده الى الحالات الفيزيكية المختلفة التى يمكن أن تطرأ على المادة الحية فى الخلية

النظرية الفيزيكية

بينا فيما تقدم كيف تفسر النظرية الحيوية عملية السرطنة ناسبة اياها الى التأثير المباشر للميكروبات أو الطفيليات وأوردنا طرفا مما يمكن أن يوجه الى هذه النظرية من نقد ثم تعرضنا قليلا للنظرية الكيماوية وبينا كيف يحاول الكيماويون اسناد عملية السرطنة الى التأثير المباشر لبعض المواد الكيماوية وألحقنا بذلك طرفا مما يمكن أن يوجه الى هذه النظرية أيضا من نقد وتفنيد ولمحنا فى كل ذلك الى النظرية الفيزيكية ولعل القارىء يتوقع منها حلا نهائيا لمعضلة السرطان وفى الواقع أن هذا ما آمله ويأمله الجميع ولكن لابد لذلك من ابحاث أخرى طويلة .ان النظرية الفيزيكية هى فى رأيى أبعد النظريات تحليلا للمعضلة وأقواها على تفسير المظاهر المختلفة والمشاهدات المتباينة فى المسألة وهى على ذلك أوفق حل وجد الى الآن ولكنها لا تزال بعيدة عن الكمال وما هى الا خطوة أوسع من الخطى الأخرى نحو الغاية المنشودة . فيجب علينا أن لا نخدع أنفسنا أو ان نتوقع منها أكثر مما يمكن أن تعطى

وتعتبر النظرية الفيزيكية السرطان كأنه النتيجة المباشرة لتأثير العوامل الفيزيكية المختلفة فى الجسم . لقد نشأت الفكرة فى بادىء الأمر كنتيجة محتمة لما شاهده الفيزيكيون من تكرار الاصابة بالسرطان بين العلماء الذين تضطرهم ابحاثهم الى التعرض الى أنواع معينة من الاشعاعات أخصها أشعة اكس وأشعة الراديوم فلقد ذهب كثير منهم ضحية لهذه التأثيرات وكان من بينهم كثير من الفطاحل والأقطاب فى هذا الفن وفى كل بلاد العالم تقريبا . لم يكن من الممكن اهمال أمر كهذا فلقد روع العالم العلمى بموت الكثيرين من رجالاته كنتيجة لتعرضهم مدة معينة للعوامل الفيزيكية التى سبق التلميح اليها

وهذه العوامل متعددة لاتقتصر على تأثير أشعة اكس أو اشعاعات الراديوم انما تتعداها الى غيرها مثل الاحتكاك أو الضغط المستمرين وقد أمكن اظهار أثر هذه العوامل فى عملية السرطنة بشكل قاطع بحيث نستطيع أن نقول أن فى امكاننا أن نولد السرطان فى جسم خلو منه فى أى وقت وذلك بمجرد وضع هذا الجسم تحت تأثير هذه العوامل كلها أو بعضها . ونظراً للتقدم العظيم الذى حققه العلم الحديث فى علم الفيزيكا استطعنا أن ندفع الابحاث السابقة الى الأمام الى أن بلغنا به حد المقاييس الدقيقة مما يسهل تحقيقه فى الابحاث الكيماوية أو الحيوية . فنحن نعرف على وجه التحقيق القدر الذى تلعبه هذه العوامل فى عملية السرطنة ونعرف انها على اختلاف أنواعها تسلك فى ذلك سبيلا واحدا فسواء استعملت أشعة اكس أو اشعاعات الراديوم أو الاحتكاك المستمر أو الضغط المتوالى فالنتيجة واحدة والكيفية التى ينشأ بها السرطان واحدة أيضا

فاذا سلطت على الجلد مثلا لمدة كافية من الزمن اشعاعات الراديوم أو أشعة اكس فان نتيجة ذلك كما تعلمنا الفيزيكا تتعدى التأثيرات الحيوية المختلفة والتى تستعمل من أجلها هذه العوامل كطرق للعلاج الى اتلاف كمية من الخلايا وانفجارها وهذا الانفجار اما أن ينشأ عن تأثير القذائف كما فى حالة الراديوم أو عن التأثير الكهربائى المغناطيسى كما فى حالة أشعة اكس . وانفجار الخلايا هذا كاف اذا استمر المدة الكافية لتوليد السرطان على النحو الذى أشرنا اليه سابقا . فالخلايا المنفجرة تترك وراءها كميات هائلة من المواد الغذائية التى تمتصها الخلايا الأخرى فتتحول نتيجة لذلك الى خلايا سرطانية ويتخلف هذه الخلايا المنفجرة نفسها كما أثبت الاستاذ فيرشون أبو الباثولوجية الحديثة افرازات اسمها الافرازات الانحلالية وهى تسبب موت الانسجة وانحلالها . ويضاعف هذا الموت عملية الامتصاص المبالغ فيه التى أرجعنا اليها عملية السرطنة نفسها

واذا تأملنا بقية العوامل أى الاحتكاك والضغط وجدنا أن ما تقدم يمكن تطبيقه عليهما أيضا . كما يمكن تطبيقه على نظرية الاستاذ باجس المتقدمة الذكر فيكون عمل ميكروب السل أو أى

ميكروب آخر أو أي طفيلي يمكن مشاهدته ليس الا القيام بعملية اماتة بعض الخلايا وانفجارها مما يؤدي الى السرطنة على النحو الذي قدمنا

مما تقدم نرى ان النظرية الفيزيكية تذهب فى التفسير الى الحد النهائى تقريبا فهى تكمل التفسيرات المبتورة التى تقدمها النظريات الأخرى فوق انها توحد بين صفوفها وتوجهها اتجاها واحدا واضحا

اذا شئنا اذن أن نتجنب السرطان فعلينا أن نتجنب كل ما يمكن أن يسبب الموت السريع أو انفجار الخلايا الحية مثل التعرض للاحتكاك أو للضغط أو للكم القوى أو للسقطات والصدمات العنيفة فوق تجنبنا العوامل الاخرى مثل التعرض من غير سبب الى أشعة اكس والوقاية منها اذا اضطررنا أن نعمل لذلك لأن علاج السرطان أمر عسير فى الواقع فلا يعرف الطب له الا علاجا واحدا

علاج السرطان

علاج السرطان هو الاستئصال الواسع الممتد فليس المهم هو استئصال كل الورم الرئيس أى الجزء الأهم منه انما المهم هو أن لا تترك أى خلية سرطانية واحدة . وأفضل مايمكن أن يقوم به مريض بهذا المرض هو أن يعطى الطبيب المعالج الحرية فى أجراء العملية بأسرع مايمكن لو رأى ضرورة ذلك فالاسراع فى العلاج عامل من أقوى العوامل ومساعد كبير على الشفاء

وليس من الضروري استئصال المرض بالمشرط فقد يتعذر ذلك أحيانا أو يستحيل ولذلك يستعمل الراديوم وأشعة اكس فى مقاومته فى الأدوار الأولى وقد يعجب القارىء من هذا القول بعد ما بينا من عمل أشعة اكس والراديوم وباعهما الطويل فى توليد السرطان ولكن قديما قيل : « وداوني بالتى هى الداء » فهناك فرق بين أشعة اكس مستعملة بمقدار معين وبينها نفسها كقوة غشومة مدمرة

ابحاث دلبت

ومن بين الابحاث الرئيسة فى السرطان هناك ابحاث خاصة قام بها الأستاذ دلبت تمتاز بطرفتها فانها ليست على منال بقية الابحاث الأخرى وأساسها الاحصاء والمقارنة فقط . قام دلبت باحصاء عدد الوفيات بالسرطان فى كل أنحاء فرنسا مقسما الأقاليم إلى مناطق عدد سكانها خمسة آلاف شخص فقط وأوجد بالرجوع إلى السجلات الرسمية عدد الاصابات الموجودة فى كل من هذه المناطق ومنها عين النسبة المئوية للمصابين بالسرطان فى كل أقاليم فرنسا وقام بمقارنة هذه النسب بالتكوين المعدنى والجيولوجى لتربة كل من هذه الأقاليم اعتباراً بأن فرنسا بلد زراعى يعتمد أهلها فى الجزء الأكبر من موادهم الغذائية على محصولات أرضهم . وقد أوصله هذا البحث إلى نتيجة فذة

هى أن الاقاليم الغنية بالماغنيسيوم عنصرا أو مركبا سواء فى الماء أو فى الاغذية تقل فيها الاصابة بشكل ظاهر . واستنتج من ذلك أن الماغنيسيوم لابد انه يلعب دوراً هاما فى عملية الوقاية ضد السرطان . وقد أجريت مختلف التجارب للتحقق من النتيجة التى حصل عليها ولا تعرف حتى الآن أن هناك من يعارض هذه النتيجة وقد توالت الابحاث فى الموضوع وانتقلت من فرنسا إلى ايطاليا وألمانيا وكانت النتائج التى وصلت اليها الابحاث مؤيدة لما وصل اليه دلبت . ولعل فى ذلك سند جديد للنظرية الكيماوية ولكنا لو تأملنا قليلا لوجدنا إن هناك فرقا بين الوقاية من المرض وتسببيه فقد يكون للمواد الكيماوية أكبر الاثر فى علاج مرض ما أو فى الوقاية منه دون أن يكون له أى أثر فى تسببيه فنحن نعرف أن للبزموث والزئبق أكبر الاثر فى علاج السفلس «الزهرى» ومع كل لايعزى الزهرى إلى نقص أيهما فى الجسم . وفوق ذلك فاننا نلاحظ أن تأثير الماغنيسيوم العام فى الجسم من شأنه تقليل تعريض الجسم للعوامل الفيزيكية التى سبقت الاشارة اليها فهو مسهل وعلى ذلك يجعلنا نتجنب الامساك ولا نكون مبالغين إذا قلنا ان ٩٩ فى المائة من حالات السرطان فى القناة الهضمية وعلى الاخص المستقيم ناشىء عن الامساك

العبرة

نستطيع أن نستخلص مما تقدم الحقائق الآتية والتى يجب أن لا تغيب عن بالنا حتى لانقع فى مخالب هذا المرض الوبيل وحتى يمكن أن نتخلص منه أو نساعد الآخرين على التخلص منه إذا وقعوا فى حبائله

١ — السرطان مرض فاتك جدير بالعناية والالتفات وهو لا يؤلم الجسم فى اول الامر ولذلك يجدر بنا الاسراع الى الطبيب فى كل مرة نلاحظ فيها ورما نتوسم فيه انه ليس ورما التهابيا كما بينا

٢ — لا يجدر بنا أن نتلكأ فى اتباع مشورة الطبيب إذا ما نصح باجراء العملية بحجة انه من الممكن الاستغناء عنها أو بحجة انها غير مجديه . فليس كل سرطان مميت والعامل الاول فى نجاح العملية هو التبكير والتعجل فى استئصال الورم استئصالا كليا

٣ — إذا شئنا تجنب اغلب السرطانات فعلينا ان نحذر الامساك وأن نقاومه بكل الوسائل الممكنة . وأن نتجنب كذلك تعريض عضو من اعضائنا الى الاحتكاك المستمر بجسم آخر خصوصا إذا كان خشنا . إذا كنت تريد أن تضمن سلامتك من سرطان اللسان مثلا فتأكد اولا أن اضراسك ليس من بينها أضراس محدودة الطرف تحتك بها لسانك باستمرار .

٤ — تستطيع أن تطمئن إلى املاح الماغنيسيوم فى وقايتك من شر هذا المرض الفتاك على أن تستعملها بانتظام ودون مبالغة فى ذلك وهى جديرة بأن تقنعك بعظيم فائدتها لما سوف تلاحظ من آثارها الحسنة فى تنشيط جسمك وتقويته وخصوصا فى تنظيم عملية الهضم والافراز

الفيتامينات وقيمتها الغذائية

بقلم كامل لطفى ميخائيل

لاتعجب ! فان الذين عاشوا قبل سنة ١٩١٢ وكان يربطهم بالعلوم حب الأطلاع أو بغية فى الاحتراف بها ، ماكانوا يسمعون البتة عن هذه الكلمة الاعجمية الغريبة « فيتامين » التى صارت فى يومنا هذا حديث الكثيرين من رواد العلوم وبحث من ولجوا باب التكلم عن الغذاء والتغذية الغنية التى تلعب أكبر دور فى اثراء أصحاب المزارع الذين يديرونها على احدث النظم العلمية الاقتصاديه ، كما أنها موضوع الطب والاطباء فى المعالجة

ومما يعزى الى انتشار الفيتامينات الآن وتفشيها بنسبة محسوسة مابذلته معامل الأغذية لدعاية الترويج فى الجانب التجارى من رسم الصور المختلفة المطرزة باسماء الفيتامينات والمغالاة فى قيمتها مما أكسبها لونا جذابا مغريا على لوحات الاعلانات . ولا حرج فى ذلك ، فهذا شأن التجارة والاتجار

ولكن مما يؤسف له من نتيجة هذه الدعاية أن كثيرا من الناس ذوى الدراية القليلة بالعلوم قد اكتنفتهم لغة الترويج وابعدتهم عن أن يروا قيمة الفيتامينات فى أحسن جانب لاستعمالها ، حتى اصبح الكثير منهم يغالى فى قيمتها إلى حد انتحت فيه باقى المواد الغذائية كالبروتين والدهن والكربوهيدايت والمعادن ، حتى انك لاتكاد تحدث شخصا عن البروتين باعتباره غذاء للنمو حتى تجده ينحو بك ويذكر لك الفيتامين بانه أمتن من البروتين فى عملية النمو ، وكأنه لايفرق بين وظيفة البروتين فى النمو ووظيفة الفيتامين فى النمو ، وهذه علة يجب أن تشفى من كثير من أمثال هذا المثال ، كما أن بعضهم يجهل المواد الغذائية وفوائدها وهذه علة ايضا يجب أن تعالج بواسطة الاطلاع على كتب ونبذات علم التغذية ، وهذا أصوب ملجأ لملافاة الاغلاط

ولا أعنى فى حديثى هذا أن الفيتامينات قيمتها لاتدعو للاهتمام بها ولكنى أقول مع ملاقته من نتيجة التجارب العديدة لاظهار منافعها فى السنين الاخيرة تبعث على الاهتمام الكثير بها لتوفيرها فى غذاءنا كما سيظهر ذلك من حديثنا عنها . واننا فى حالة تقرير أخذ كميات وافرة من الفيتامين يجب أن لاننسى كم يحتاج جسمنا أو جسم الحيوان من البروتين أو المعادن مثلا ، فنوفر ذلك أيضا بالنسبة التى تجعلنا قادرين على التمتع بالصحة الجيدة والبنية المطلوبة أو الغرض المطلوب من الحيوان ، وإلا

اختل التوازن في الجسم وأصبح ضعيفا حتى انه في بعض الاحيان لايكون قادراً على عدوي الامراض مع العلم أن الغذاء الكامل الجيد مسبب للمناعة أو هو بالحري مقوي المناعة . وهذا خلاصة ما أعنيه عندما يغالي الانسان بالفيتامين يجب أن لاينسى الفوائد الجمة المطلوبة التى تعود على الشخص فى حالة اهتمامه بالمواد الغذائية الاخري أي يجب أن يكون الغذاء كاملا من جميع المحتويات بقدر النسب التى يحتاجها الجسم

* * *

وبما أننا نحتاج الى معرفة الفيتامينات حتى يتسنى لنا استعمالها على الوجه الاصح آثرت أن أنقل الى اخوانى القراء موجزا عن بعض ماقرأت أو درست فى هذا الباب ، وسأكتب هذا الموجز فى قالب دراسة تفصيلية موضحا مكانة الفيتامينات من حيث التاريخ أو التركيب الكيماوى .. الخ

* * *

فكلمة فيتامين ظهرت أو بالحرى أو من وضعها أو نطق باسمها هو العالم البولندى كاسمير فنك وهى كلة انحذت لفظها فى الانجليزية كما نحن نلفظها فى العربية تماما . وأصلها من الكلمة اللاتينية « Vita » ومعناها الحياة والسبب الذي قاد إلى معرفة الفيتامينات هو ماروى عن العالم البولندى ، أنه كان يعتقد أن هناك مادة من المواد الغذائية ذات صلة نوعية أو قرابة من البروتين تؤثر فى حياة المخلوق الحى تأثيرا بارزا . ووجد أنه حينما لايحتوي عليها الغذاء ، يعود ذلك بضرر تظهر علاماته فى الحيوان . وطفق يجرب بعد ذلك هل هى من البروتين ؟! فأجرى عمليات كثيرة توصل فى نهايتها إلى فهم أن هذه المادة حاضرة فى الغذاء ومستقلة ليست من البروتين كما كان يزعم وأنها توجد فى بعض الاغذية كما أن بعضها يفقدها تحت حالات خاصة . وعلى ذلك كان أول من أشار إلى اكتشافها

وبتوصله هذا إلى معرفة إستقلالها ، أراد أن يعطيها اسما يعبر عنها ويحددها بعض الشىء ، فلم يجد أقرب وأحسن من هذه الكلمة التى نتداولها الآن وهى الفيتامين التى شرحنا معناها . وفى الحقيقة أنها تؤدى وظائف أخرى لاينطبق عليها هذا الاسم غير أننا إذا انحرفنا قليلا وتجاهلنا تفرع وظائفها وانتهينا بجمعها تحت الغاية الفريدة التى تنتهى بها كل وظيفة ، لأدركنا أنها لاتخرج فى معناها الاصلى عن تأدية أهم وظيفة وهى الحياة ، وذلك بلا شك هو السبب الذى بعث بكاسميرفنك لأن يخلع عليها هذا الاسم لكونها مادة الحياة . وقد لا أبعد بك كثيرا فى هذه الفكرة فهى نفس ما أثبتته تجارب الدكتور مكولم الامريكى بمحطة التجارب بوسكنسن بامريكا حينما شاهد من خلال تجاربه أن عدم اعطاء نوع واحد من الفيتامين هو السبب الرئيس

الذى يؤدي فى كثير من الأحيان إلى الموت ، ومن هنا ندرك أن الأسم مطابق لما وضع له
ولزيادة الايضاح فى هذا الجانب أذكر ماقرأته مرة عن صورة أخذها الدكتور والتر إدى . .
فهى علاوة على ما ستعرضه أمامنا من النتائج التى تشرح لنا بجلاء قيمة الفيتامينات وتأثيرهـا
الوخيم فى حالة فقرها فى الطعام ، فأنه أيضا ستصور لنا العملية التى حاول بها المجربون فى تجاربهم من
اكتشاف الفيتامين وأنواعه بل التى مازالوا يحاولون مع الفيتامينات من دراستها الدراسة التى تمكنهم
من اخراج أنواع جديدة أو تساعـدهم على دراسة مادة الفيتامين ، واليك نص ماكتب تحتها مع
بعض الايضاح

أربعة من الجرذان أجرى عليها الاختبار الآتى : فوجد أن الأول وقد أعطى غذاءا كاملا
من جميع المحتويات الغذائية شاملا الاغذية التى تحتوى على مايحتاجه من أنواع الفيتامينات . هذا
نما نموا طبيعيا بل يصح أن نقول فى صحة أحسن ، والثـانى ، حجز من غذائه نوع من الفيتامين
يسمى فيتامين « A » فـكانت النتيجة تدل على أن غدد العين لم تكن قوية لتفرز السوائل العينية
لتغذية وحفظ العين ، وعليه ضعفت وصارت مرتعا خصبا لنوع من البكتيريا المضرة . أما الثالث
والرابع فقد حرما من الاغذية التى تحتوى على فيتامين « B » فـكانت النتيجة ظهور حالات
مرضية مختلفة . فـكان منها فقد كل أو بعض الحواس والحركة « الشلل » ، وانحناء شديد فى سلسلة
الظهر ، علاوة على وقوف النمو ، بل هزل الجسم وراح يأخذ شكلا صغيرا تعلوه خشونة الشعر
وفقد لمعته وعدم انتظامه . وذكر أن مثل هذه الحيوانات حينما تعالج بواسطة اعطاءها فيتامين « B »
تعود صحتها إلى حالة عادية ماعدا بعض العظـام التى اتخذت شكلها تحت الحالات المرضية فى
طور النمو

وهـكذا كانت تجري جميع التجارب على هذا النمط الفسيولوجى الذى توصل بواسطته لفيف
المـكتشفين إلى معرفة أنواع الفيتامينات ، إما عن طريق الجرذان وهم أكثر شيوعا أو على عدد
من أنواع الحيوانات الاخرى كالطيور والارانب والخنازير ... الخ

* * *

ونحاول بعد ، دراسة شيء تاريخى عن استعمال الفيتامين . فقد عرف الفيتامين عضوا قبل هذا
التاريخ بكثير . ولـكن ماكان يشير اليه أحد أو يعبر عنه بوصف يوجب فهمه أو تحقيق وجوده
بدلالة واضحة فى أى نوع من المأكولات ، ولـكنه كان يمارس تناوله فى الغذاء بطريقة مبهمة لديهم
لايستطيعون أن يعزوا السبب له كما يمارس ذلك الآن بين عامتنا وهم يجهلون الفيتامين لـكنهم ينصحون
بأكل أنواع مخصوصة ويقولون بأن عدم تعاطيها يسبب كذا وكذا

ولا أقول ان هـذا فقط حديث الغذاء بين عامتنا أو القدماء . بل هو أيضا حديث الطب قديماً وقد يـكون من أهم الحلقات التى كانت تميز مثل هـذا الطب صحياً ويمتاز صاحبه بكثرة رواده

فبعض الطب المصرى القديم يشم مثل هذا اللون ، بل طب بعض الأقطـار النائيـة كالصين وبعض سكان الهند وأواسط افريقيا التى تتمشى حضارتهم ومدنيتهم جنبا للقرون الوسطى أوماقبلها . بل قد أعبر بهذا الحديث بالقول باننا مازلنا إلى هذا العهد الذى نرى فيه المدنية تعم أقطاب مدن العامرة وتفيض عليها بأجل العلماء والأطباء النطاسيين ، وبأحدث ماابتكروا وكشفوا ، وأجمل مانظم وسهل استعماله ، ان هناك جماعة من العامة مازالوا يستعملون بعض الطب العتيق الناجح مما وصل إلى أيديهم عن طريق أجدادهم أو تلقنوه من محترفى الدجل — ومن الغريب أن يلتف حول نفر من هؤلاء الأطباء البائدين جماعة من المتعلمين ويوردون الحجج بصحة طبه ودواءه ، فيتهافت عليه الـكثيرون ممن دفعتهم عاهة إلى حاجته حتى وإن كانت العاهة لاطب لها . وقد تـكون حذاقة ومهارة هذا الصنف من الأطباء مجلبة للشهرة الواسعة بواسطة انتقاءه مايقوى على شفائه ومعالجته ورفض مالم توصله تجاربه إلى تصحيحه وإبراءه

وفى اعتقادنا هذه الأيام أن العلم الحديث كشف الستار عن معظم هذه الغوامض ، وأوضح صحة البعض وأوصى بالأخرى فى عدم استعمالها لانها قد تـكون حشوا فى الدواء بلا فائدة او قد تـكون مضرة . ويجدر بأن نأتى بشرح لتلك الخبرة الطبية العتيقة فى جانبها الأحسن بتعليل نسلمه بعض الشىء من الخطأ :

فتجد أن ذلك الطب كان محصورا فى تشخيص داء تـكون ظواهره بارزة ليس كما نستعمل الآن لذلك المكروسكوب والسماعة .. الخ للامراض الخفية والظاهرة . ثم يقرر العلاج ، وقد يـكون من احد الأغذية التى تحتوى نوعا من الفيتامينات بغض النظر عن البعض الآخر الذى يعالج بالدلك والجبر والسوائل المسهلة .. الخ فمثلا إن كان المرض من النوع الذى سبق ذكره كالـكساح أو ماعبرنا عنه بفقد بعض الحركة ، فالعلاج الذى يتقدم به هذا الطبيب ماهو إلا أن يشير إلى نوع من الخضر أو المأكولات التى تحتوى نوعا من الفيتامينات كما نحن نعرف الآن فى وقتنا الحاضر وكما كان يعرب هو عن طريق التجارب التى كانت تأتيه مصادفة من مزاولته حرفته بأنه يقوى اعضاء الحركة . وقد يزيدمن فذلـكة حديثه إعلاء لقدره ولطلبه النادر كما يزعم فى قوله للزبائن ، فيذكر مركبا من عدد من المأكولات قد يجهزها هو بنفسه ويجعلها فى شكل خاص مغر كما يمارس ذلك الآن فى الصين بكثرة . أو يصف المركب بتطويل معقد يهتم فيه بالاكثار من النوع الذى

يعنيه ثم بجعل لذلك بروجراما عن أوقات الاخذ والمقدار... الخ مما يجعل الشاري مهتما بأمره ويدفع الدنانير فيه بسخاء

والمشاهد أن استعمال الفيتامين فى الطب القديم لم يكن على أساس كما نحن نتقرب الآن من معرفة هذا الاساس فى طبنا الحديث . ومعرفته قديما كانت مجرد نتائج التجار التى كانت تنجح مع البعض مع طول ممارسة المهنة وقوة الملاحظة . ويجب أن نعرف انه ما كان الطبيب منهم يفطن إلى هذا السر الموجود بنوع الغذاء . ولكنه كان يعرف أن الصنف الذى يذكره يؤدى الى النتيجة المرغوب فيها ، ولو لاحظ ذلك لادلى بالاشارة اليه فى تاريخ الطب

ولهذه المناسبة نذكر قصة واقعية رواها أحد أساتذة كلية جفن الزراعية لطلبه علم التغذية فى افتتاحية محاضرته عن الفيتامينات . ويشاهد من خلالها مصادفة من المصادفات التى قادت إلى استعمال الفيتامين فى نوع من المشروبات التى صارت قاعدة لغيرهم من بعدهم ، والتى هى مثال لما كانوا يلاقونه قديما هؤلاء الاطباء وغيرهم من مصادفة ترشدهم فى اثناء حياتهم فى فنهم . واليك القصة :

ان جماعة من الامريكانيين قاموا بسياحة إلى بعض الجزر فى المحيط الاطلنطى فى مركب شراعى كبير . وقد أخذت الرياح تقذف بهم إلى اتجاه لا يقصدونه . فغابوا تائهين على المياه زمنا طويلا . ينشدون النجدة ولا معين لهم . يطلبون البر فتعانقهم الامواج وتملأ قلوبهم بالرعب والهول . يسألون الغسق عن نور يخلفه فلا يجدونه ، ويعتلى الفضاء سحبا وبرقا . يتلمسون الاهتداء وقد أوشك اليهم أن يكون الشمال فيه كالجنوب والشرق كالغرب وليس فى انظارهم سوى الماء والسماء

وهكذا صارت الرحلة ملأى بالهلع والذعر ، وطالت بهم المدة حتى نفدت منهم جميع الخضراوات أو بالحرى المأكولات التى تحتوى الفيتامين وبقى معهم دقيق الخبز الابيض والارز وبعض من محتويات العلب . وكان هذا هو الغذاء الوحيد الذى عاشوا عليه مدتهم . وقد ظهر بينهم بعد مدة مرض وبال أفضى بموت اثنين ، وقضى على صحة الكثيرين منهم بحالات خطيرة ماعدا أحدهم وكان بحارا ، وقد خزن لاستعماله الخاص كمية كبيرة من عصير الليمون فى زجاجات كان يستعمله فى اثناء الاكل

وحينما بلغ قبطان المركب أمر هذا الرجل ، فطن إلى معرفة السر ونسبه الى الليمون الذى يستعمله البحار . فأخذ يجرب هذا العصير وآثر استعماله أولا لنفسه . فوجد أن صحته فى تحسن . وقد انتشت أعضاؤه ، وتركه الخمول ، وأصبح يقظا نشيطا

ولما أدرك مقدار فائدته ، ورأى ان الركاب احوج منه إلى هذا العصير ، اخذ يعطى كل فرد

ملعقة كل يوم ، وأعقب توالى هذه الجرعات تحسنا محسوساً . ولما أوشكت أن تفرغ الزجاجات نقص الجرعة الى نصف ملعقة ثم الى الربع حتى صارت بهم المركب بغتة الى احد سواحل أمريكا الجنوبية حيث استعانوا هناك بشراء كميات كبيرة من الليمون لاستعمالها . وكان لهم أن يسترجعوا صحتهم كما كانت قبل ، بل حينما وصلوا الى بلدتهم انطلقوا يقصون هذا الاكتشاف الطبي العظيم وينصحون كل بحار ومسافر باقتناء عصير الليمون

وعلى ذلك لاندهش إذا قلنا أن مصادر الطب القديم قد تكون قصصا تشبه هذه فى معالجة المرضى بواسطة الأغذية التى تحتوى الفيتامينات . وسنرى فعلا فى قراءتنا ان الفيتامينات تستعمل كدواء لمعالجة بعض الامراض فى طبنا الحديث

* * *

وهنا نعود الى جانب آخر من الحديث ونتكلم بطريقة اجمالية عن دراسة بسيطة منظمة بعض الشيء عن الفيتامينات فى وقتنا الحاضر

الي هذا القرن العشرين الزاخر بمختلف الاختراعات لم يتمكن الكيماويون من معرفة مادة الفيتامين أو عناصرها كما نشاهد مثلا فى المواد البروتينية . وقد لحت بعض الجرائد والمجلات العلمية الى بحث العلماء فى هذه الناحية ، وفى الحقيقة لم تظهر الى الآن نتائج بارزة من تجاربهم يمكننا ن نتناولها بسهولة فى أثناء دراستنا فى الكتب ، وعليه لا أريد أن أسترسل فى شرح اقوالهم ولكن أهم ماتمكن أن يعرفه الكيماوى هو أن يثبت أن الفيتامينات تعطى صورة شبيهة بالمساعد الكيماوى الذى يدخل فى العملية الكيماوية ليساعد على التغير الكيماوى بسرعة . وأن الفيتامينات لاتكون مادة واحدة فى خواصها وتركيبها ولكنها مختلفة تجمع جنسيا تحت اسم الفيتامينات وأن لكل واحدة وظائف مختلفة تؤديها للجسم ، كما أن الواحدة منها تختلف نتائجها فى حالة عدم توفرها . واما عن فوائدها فهنا فكرة اجمالية موجزة تعرف الفيتامينات بطريقة يمكن أن نحصر فيها كل ماتقدم به نحو الجسم من منافع . وعلى كل حال سندرس تفصيلياً بعضاً من هذه الفوائد تحت كل نوع من الفيتامينات . وأن هذا التعريف على الاطلاق لايعتبر تاما مادامت الفيتامينات فى حقل التجارب ومازال الكثير عنها مبهما وأن فى المستقبل ستظهر لها فوائد كثيرة أخرى غير التى نعرفها الان ، وعليه نكتفى بذكر ماوصلت اليه الابحاث فى علم البيولوجية «١» أنها تساعد فى عملية الهضم ، فتسرع ببعض المواد والعناصر الى التفكير الكيماوى الذى ينتهى بعملية امتصاص المركبات المفيدة وفرز الباقى خارجا . «٢» تشعر الخلايا الحيوية بالنشاط لتقوم بمهمة الوظائف الحيوية كالاحساس والتكاثر . . . الخ . ثم الدفاع عن نفسها ضد المكروبات والأعراض

البيئية . . . الخ . «٣» تمون الجسم بمجموعة من بعض الكيماويات التي يحتاجها ، ولا يقوى هو بنفسه على صناعتها . وهي لا تعرف الى الآن ولكن تبدو علاماتها جلية في جسم الحيوان

وهذه النقط الثلاث هي خلاصة ما نعرفه الى الان وربما تعترضنا فوائد أخرى في أثناء دراستنا أهميتها قد تكون ضئيلة

اتفق العلماء على تقسيم الفيتامينات من ناحية خواصها الكيماوية فوجدوا أن الستة الانواع من الفيتامينات المهمة التي توصل الى اكتشافها العلم الحديث ، بعضها يذوب في الزيوت والبعض الآخر يذوب في الماء كما أن الاثنين يذوبان تحت بعض الحالات في الكحول وهذه خاصة كيماوية لها أهمية في مستقبل الفيتامينات . والطريقة التي توصل الى هذا التقسيم هي بواسطة معرفة أن بعض الفيتامينات تكون حاضرة مع الغذاء الذي يكون به الزيوت ، وفي حالة عدم وجود الزيت بالغذاء يفقر هذا من هذه المادة . كذلك الحال مع الفيتامينات التي تذوب في الماء واتفقوا على تسمية كل نوع من الفيتامينات باسم خاص مقتبس اما من وظيفته التي يؤديها للجسم أو من خاصيته . ولسهولة الاستعمال اختصروا الاسماء الى حروف الهجاء وعلى ذلك وضعوا التقسيم على هذا الأساس بأن وجدوا فيتامين (A) (D) (E) تذوب في الزيوت وعليه سميت بالفيتامينات الذائبة في الزيوت . وأن فيتامينات (B) (C) (G) تذوب في الماء ، فسميت بالفيتامينات الذائبة في الماء . وقد يكون أيضا هذا التقسيم في المستقبل قابل للزيادة والتنقيح . وأن جميع هذه الفيتامينات متوافرة في النباتات ماعدا فيتامين (D) فانه يوجد أكثر في المستخرجات الحيوانية كالزبدة ومح البيض الاصفر . . . الخ . كما أن أحدها يوجد في أشعة الشمس البنفسجية وسندرس الفيتامينات بحسب هذا التقسيم :

الفيتامينات الذائبة في الزيوت

فيتامين (A) او ما يعرف باسم « Fat Soluble Vitamin » وذلك لسرعة ذوبانه في الزيوت .

وهو أول نوع من الفيتامينات اكتشفه الدكتور مكولم الاميركي سنة ١٩١٣ . ومن غريب ما روى عن هذا النوع أنه يكون ملازما للون الاصفر في بعض المأكولات . فيوجد مثلا في الذرة الشامية الصفراء وجذور النباتات الصفراء . . . الخ . وليس بنسبة كبيرة

ويوجد أيضا بكثرة في الزبدة واللبن وفي كبد الحيوانات والسمك خصوصا في زيت الحوت وفي مح البيض الاصفر وفي بعض العضلات . ويوجد أيضا في بعض النباتات في الأوراق الخضراء خصوصاً السلق والسبانخ والرجلة والجرجير والخس . . . الخ . وفي الطماطم والقرع والبرسيم وفي أوراق الكرنب الخضراء ومتوسط في لبه

وهذا الفيتامين يفقد فائدته إذا تعرض للهواء . أما الحرارة الشديدة فانها تعدم نفعه ، لذلك يستحسن بان لاتطهى هذه المأكولات وتؤكل بقدر الامكان نيئة

وعدم وفرته فى أي غذاء ينتج عنه بطء النمو لذلك كثيراً مايلقب بمنبه النمو أو مشعر النمو وعدم وفرته أيضاً تقلل المناعة ضد الأمراض . كما أنه ظهر من عدم وفرته فى غذاء الطيور الداجنة مسبب لأمراض الجهاز التنفسى كالبرد والروب Roup أو مايسمى « Avian Diphtheria »

ولكى نتقى هذه الأمراض نوفره فى غذاءنا ، وهو خير علاج

فيتامين (D) أو مايعرف باسم « Anti—rachitic Vitamin » وسمى بهذا الاسم لأنه يمنع مرض « Rickets » أى المرض المسبب لضعف الساق فى الحيوانات والانسان وخصوصا الأطفال بل فى العظام جميعاً فتظهر منحنية ومشوهة الخلق

وأهم وظيفة يؤديها للجسم هى مساعدة الدم بالحاجة الضرورية بالتموين من الأغذية بالكالسيوم والفسفور اللذين يعملان فى تركيب العظام . وعلى ذلك يظهر لنا كيف وصل البحث بان ضعف الساق مسبب عن فقر هذا النوع من الفيتامينات وبلا شك يبنى أيضاً على ضعف العظام النمو البطىء

وما يلوح لنا من اتصاله بالمواد المعدنية التى نتوقع أن الابحاث فى المستقبل ستكشف عن هذه العلاقة نجد أن علماء التدجين يذكرون أن صلابة العظام فى الطيور الصغيرة الداجنة لاتحدث إلا بواسطة هذا الفيتامين كذلك سهولة انزلاق البيض وتكوين القشرة الناعمة والسميكة المقاومة للكسر لاتحصل إلا بمساعدة فيتامين آنتى — رشيتك . ولهذا قرروا فى تركيب الغذاء ١ فى المائة من زيت كبد الحوت يعطى مستديماً خصوصاً فى فصل الشتاء فى الأقطار الباردة التى تحجب عنها حرارة الشمس زمناً وبذلك يحصلون على الفوائد المرغوبة من الدواجن

ومما هو جدير أن نذكره عن هذا النوع أنه يوجد فى أشعة الشمس البنفسجية أو فوق البنفسجية . وأن الانسان قد يكفيه فقط تعرضه لها فيتشرب جسمه مايحتاجه منها من الفيتامين ويلاحظ فى ذلك أن الجسم العاري هو الذى ينتفع بهذه الفائدة دون الجسم المستتر عن الأشعة التى لاتتسرب اليه . وأتذكر ماقاله أحد الأطباء فى صدد هذا الموضوع أن التعرض للاشعة خمس دقائق تكفى لتموين الجسم بما يحتاجه . وتعرف هذه الطريقة باسم حمام الشمس

وقد شاهدت كثيرا من الافرنج يداومون على حمام الشمس فى الصبح حيث الحرارة بسيطة وحيث يتمكنون من تعرية معظم أجسامهم ، بل قد يلبسون أطفالهم فى الصيف ملابس تكاد أن تجعل معظم الجسم عاريا . وبلا شك تعتبر هذه العملية المستديمة من مسببات التجميل عندهم بل تساعد على قوام الجسم المتزن . . . الخ . وياحبذا لو نشأنا نعمل بما يقرأ أو بما يشاهد عند الافرنج مما يفيد وليس مما يضر

وأتذكر مرة كنت فى طريقى إلى المدرسة وقد تقابلت مع أستاذ أمريكى اعتاد أن يخرج من منزله إلى المدرسة ماسكا قبعته فى يده . فسألته فى ذلك اليوم عن هـذا السبب . فأجاب : « أن ما بقى لى من شعر على رأسى الاجرد ، أريد أن أثبته بواسطة الشمس لئلا يلتصق بالقبعة » وهذا صنف آخر من الناس يخلط الفكاهة بالدرس القيم ، فهو يحتاج إلى الفيتامين من الشمس وفى نفس الوقت ينسب العملية لابقاء ما بقى من شعره ويحترس من قبعته

ولا غرابة فيما تحدثنا عنـه فاذا عرجنا وشاهـدنا الأطفال فى مصر الذين يصابون بمرض الـكساح الوقتى التى يعيقهم من الانتصاب والمشى المبكر بالرغم عن الاغذية الجيدة التى تعطى لهم ، لنسبنا هذا الضعف ان لم يكن كله إلى عدم تعريضهم للأشعة والمحافظة عليهم بالملبوسات الكثيرة المضايقة كذلك الغرف الرطبة البعيدة عن الاشعة . بل قد يتفق أن تأتى عليه الشمس فيبعدونه عنها — فى حين انى قد شاهدت من جولاتى فى أكثر مناطق السودان الجنوبية أن الاطفال حيث يعيشون عراة بلا مئزر وحيث مسا كنهم تلفح فيها حرارة الشمس وحيث الطفل ينال من الغذاء ما تشمئز منه نفوسنا وحيث تحيط المكروبات والناموس ببيئته ، تجد الطفل ينمو سريعا ويقوى على المشى فى سن صغيرة جدا ، بل ليدهشك قوام هؤلاء الناس الذى يجمع بين الاستقامة والطول . فان كان هناك سبب جوهرى لمرونة هذه العظام فانما تكون أشعة الشمس البنفسجية التى تعتبر فى تلك المناطق البنفسجية

وبينما أكتب فى الاهتمام بأشعة الشمس ، أرى نفسى وأنا ساكن فى منطقـة حارة أن أقول إنه يجب أن نعرف أيضا ان الا كثار منها يسبب مضار جسيمة علاوة على انها تحرق البشرة

ولا نـكتفى بأن نقول اننا فقط نستمد رأسا هذا الفيتامين من أشعة الشمس بل حدثتنا التجارب والابحاث أخيرا أن هذه الاشعة تصنع منها بعض المواد الفيتامينية ، وذلك بواسطة تعريض الاطعمة الخالية من الفيتامينات أو التى بها قليل من الاشعة التى فوق البنفسجية مددا تختلف بحسب نوع الطعام . وبذلك لأن الاشعة التى فوق البنفسجية يمكن خزن الفيتامين الموجود بها . ومن الغريب أن نعرف أيضا أن هذه المواد التى أكسبت الفيتامين بالاشعة لا تفقده أبدا . كما أن الاعتقاد القديم بأن فقط الاطعمة الملونة هى التى تحتوى الفيتامين ثبت ان الحنطة والدقيق واللبن الابيض الجاف يمكن اكسابها الفيتامين بواسطة التعريض للاشعة . كما ان بخلاف ذلك الهموغلوبين والقشدة التى أزيل فيتامينها كذلك الغلسرين والجلاتين لا يمكن اكسابها هذه الخواص بواسطة التعريض . والشىء الغير الممدوح فى هذا النوع من الفيتامين الاصطناعى أن الأطعمة يصير لها طعم

خاص مكروه كالمحرقة ، كما أن اللون والرائحة يتغيران وذلك مما يدل على أن هناك بعضا من التغير الكيماوي الحاصل وان الفيتامين آنتى رشيتك يشترك فى عملية التفاعل الكيماوى

ويوجد فيتامين آنتى رشيتك أيضا بكميات كبيرة فى زيت كبد الحوت ومتوسطا فى اللحم واللبن ومح البيض الاصفر ونادرا فى النباتات . وهذا لا يفقد خاصته إذا تعرض للحرارة أو الهواء — وعدم وفرته فى الغذاء يسبب علاوة على النتائج السالف ذكرها ضعف العضلات وقوة الاحساس التى تلازم مرض « Rickets »

فيتامين E أو مايعرف باسم « Anti—Sterility Vitamin » وسمى بهذا الاسم لأنه يمنع العقم . وهذه ظاهرة علمية حديثة تعتبر من انتصارات الابحاث العلمية . وهى تتكاتف أو تساعد الفلسفه القائمة على أشعار الغريزة التناسلية بتأدية وظيفتها — وهذا النوع من الاشعار انبتته حقول التجارب البيولوجية ، وأصبح يمارس فنيا فى أشعار النباتات باعطاء النسل ، بل قد لجأ مربو الدواجن والحيوانات الانتاجية المزرعية إلى استعمال هذه الطريقة ، وهى عبارة عن اضعاف القوة الجسمية للنبات أو الحيوان بواسطة ايقاف موارد الغذاء حتى يهزل الجسم ، فتنشط بعد ذلك الغريزة التناسلية وتشعر بأن الحياة صارت نحو الموت ولابد من تخليد النوع وهذا قانون طبيعى . وبخلاف ذلك السمن تشعر الغريزة بطول الحياة وأن أهمية النسل ضئيلة

والمشاهد هنا من قولنا مساعدة آنتى — استرلتى فيتامين لهذه الفلسفة ، هو أن الأولى تعتبر المادة للاشعار والثانية عبارة عن المهد أو الطريق الذي تسلكه هذه المادة إلى تنشيط جهاز التناسل للقيام بوظيفته — وعلى كل حال هذا ماتمكنت من تفسيره عن علاقة الاثنين بالتناسل ، ولا أدرى كم غيرى يفسر هذا الموضوع على أوجه صحيحة أخرى

واذا تتبعنا نتائج آنتى — استرلتى فيتامين فى حقل التجارب ، نجد إذا اهملت الطيور الداجنة من اعطائها هذا النوع ، يتسبب عنه قلة البيض وهذا علاوة على ماينشأ من عدم صحة البيض للتفريخ . وقيل ان الحيوانات التى تدر اللبن للجنين إذا اهملت ايضا من هذا الصنف تقل كمية لبنها كما أن بعض التجارب دلت بأن عدم وجوده فى الغذاء مسبب للعقم رأسا بغض النظر عن الفلسفة السابق ذكرها . وعلى كل حال مازال البحث جاريا فى هذا النوع من الفيتامينات والمعروف عنه إلى الآن قليل ، ولكننا نتوقع فى القريب أن الابحاث ستظهر له اهمية عملية عظيمة

ويوجد هذا فى اللحوم والعضلات والامعاء « Visceral Organs » ودهن اللبن ، وفى النباتات يوجد فى زيوت الخضراوات وأيضا فى الموز والطماطم والبرتقال والخس والحبوب عموما والفول السودانى والبرسيم

* * *

وننتقل بعد ذلك إلى المجموعة الاخرى:—

الفيتامينات الذائبة فى الماء

فيتامين B أو مايعرص باسم « anti—Neuritic Vitamin » وله تأثير شديد على صحة الجهاز الحسى ، لذلك سمى بهذا الاسم لانه يمنع بعض المسببات لالتهابات هـذا الجهاز التى تسفر عن ألم وأوجاع فى الاعصاب وأنزتزيا أى فقد الشعور.. الخ أو بعبارة أوضح يمنع « Neuritis »

وقد اكتشفه كسمير فنك سنة ١٩١٣ بعـد أن أشار الى اكتشاف الفيتامينات سنة ١٩١٢ . والسبب الذى قاد إلى معرفة هذا النوع ، انه كان يبحث عن أسباب البرى بري بين شعب اعتاد أن يقتات من الرز المقشور أى الذى ينزع غلافه . وقد وجـد أن هؤلاء حينما يستعملون جنـين الرز وبعض لحائه لايعتريهم هذا المرض . وقد توفق فى بحثه بعد ذلك إلى أن أدرك أن السبب راجع الى عدم هذا الفيتامين من غذائهم — وفقر الطعام منه يسبب ضعفا شديدا ويؤدى الى هذا النوع من الشلل المعروف بالبري بري الذي يصيب الجنس البشري ، وهو مرض قتال وبيل يكثر فى اليابان والهند وبعض الاقطار الاسيوية . ووجد اخيرا أن عدمه فى الغذاء مسبب على الاطـلاق امراض البولينيوريتس التى ينتشر منها نوع فى الطيور الداجنة يعرف باسم Polyneuritis » Gallinarum » والعلامات الاولية التى تبدو من عدم وفرة هـذا الفيتامين فقـد الشهية والتمادى فى الهزال

وما رواه أيضا الاكتشاف عن آنتى نيورتك فيتامين إنه يساعد على النمو . ولكن قد ظهر اخيرا من نتائج البحث أن هذه الظاهرة تتسبب من نوع منه ، لأنه قد تبين أن هذا النوع يحتوي اثنين أو ثلاث فيتامينات سيستقل فيما بعد من الاندماج فى هذا النوع ، وسوف يحدثنا عنها البحث الجارى فى المستقبل ! وأن أبرزهم هذ فيتامين G الذى سندرسه مستقلا بذاته والذى يعزى اليه النمو فى آنتى — نيورتك فيتامين

ويوجد هذا بأكبر كمية فى خميرة البيرة والطماطم والفاصوليا وبكميات متفاوتة فى الكرنب والسلق وجنين الحبوب وقشورها .. الخ — وهـذا قل أن يفقد خاصتـه بواسطة التعرض للحرارة أو غيرها

فيتامين C أو ما يعرف باسم « anti—Scorbutic Vitamin » وسمى بهذا الاسم لانه يمنع مرض الاسكربوت وهـذا يصيب اللحاء اللحمى الذي حول الفك وخصوصا الذى بين

الاسنان مع نزف الدم منها . ويصحب هـذا المرض ضعف شديد وحمى متقطعـة والتهاب وجروح فى الفم .. الخ

وينحصر هذا المرض فى بعض الحيوانات ، فمنها ألانسان والقردة والارانب والجوافو . ولا يصيب الدواجن والماشية ، لذلك قصر الاهتمام به فى بحثنا العام على الانسان فقط

ومن الغريب انه إلى قبل اكتشاف هذا الفيتامين كان يعتقد الاطباء أن هـذا المرض لايشفى أبدا حتى ذكر هذه العبارة الدكتور الالمانى « ولهلم ليب » فى كتابه التشخيص الطبي عن مرض الاسكربوت . وبلا شك الوصول إلى معرفة هذا الفيتامين يصور لنا البون الشاسع بين ماضى الطب وحاضرنا ، وقيمة هذا الاكتشاف

ويوجد بكثرة فى الطماطم والخس وعصير الليمون والبرتقال بل المواح على العموم والبرسيم وبعض الحشائش الخضراء والحبوب التى لم تبلغ النمو الـكامل وبعض الجزور والجزوع — وهذا النوع يفقد جوهره بسرعة اذا تعرض للهواء أو المدة الطويلة لأى حرارة

فيتامين G : وهذا النوع حديث الاكتشاف وإلى عهد قريب كان يدرس كجزء من فيتامين B ولـكنه أخيرا دل البحث على استقلاله كما برهن ذلك بالمر بدليل أن الفيران التى كان يجرى عليها تجاربه متجها فى خطته نحو النمو الطبيعى ، كانت لاتقصر حاجتها على آنتى نيوريتك فيتامين بل على مادة أخرى دعت الى توافرها فى الطعام ، وهذه فيتامين G وتوصل الى وجودها أثناء عمليته فى نوع من الخميرة التى تؤدى وظيفة فيتامين G ولاتقوم بوظيفة آنتى نيوريتك فيتامين . وعليه تبين الفرق وعرف أن هذا النوع يقوم بتمهيد النمو وفى حالة عدم وجوده فى الغذاء يتسبب عنه مرض يعتري الانسان ويعرف بالبلاجرا وهذا من امراض الجلد والسلسلة الفقرية ، ويظهر عن تقشر الجلد على سطح الجسم عموما ، ويصحب بضعف وهزال واضطراب فى الهضم وألم فى الظهر وانـكماش الجلد وفقد الشعر ولمعته وأذي فى العيون علاوة على ظهور ضعف فى الجهاز الحسى

وعلاوة على ماسلف ، قد ازال اكتشاف هذا الفيتامين اعتقاد البعض قديما عن مرض اللسان الأسود بالـكلاب ، فقد كانوا ينسبونه إلى عدم اعطاء اللحوم ولـكن البحث قد دل على أن توافر الفتامين G فى اللحوم هو العامل الأساسى لأبعاد هذا المرض . وعلى كل حال مازال هذا الفيتامين حديث البحث والملاحظات وما وصلنا اليه قليل

ويوجد فى المركبات الحيوانية جميعها كاللحوم واللبن والبيض .. الخ

تعليق : —

لاشك فى أن الاماكن الزراعية كالقرى حيث النباتات والحيوانات تربى ، لاخوف على سكانها

من الامراض التى تتسبب عن قلة الفيتامينات ، لأنها تتوافر طبيعيا فى بيئتهم . وفى الحقيقة درس الفيتامينات يصح أن نقول إنه يقصر على سكان المدن أو الذين يقطعون مسافات طويلة فى السفر ، بل على الاطلاق كل شخص يبعد عن الاماكن الزراعية ، حيث الاغذية الطازجة تستبدل بالمخزونة فى العلب والمملحة والمنشفة أو المثلجة فى بعض الاحيان . ولا أقف عند ذلك بل أقول ان هناك بعض الأقاليم الزراعية التى يكثر فيها مثلا الرز والذرة والقمح كبعض المناطق فى مصر والسودان حيث تجد أن معظم الغذاء فى مثل هذه الانحاء ينقلب فيه انتاج البلد ، وبالطبع الخوف من هذه الاطعمة حينما تكون خالية من قشرتها بغض النظر عن قلة محتوياتها الفيتامينية التى اعتاد الناس على سلخها وأكل الرز أبيض .. الخ

ولا ريب فى أن الشخص الذى يبعد عن الاماكن التى بها الفيتامينات المعرضة للأمراض التى تنشأ عن عدم أخذها . لذلك وجب أن يدرس مثل هذا الموضوع بدقة حتى يكون مؤمنا على صحته

وأضيف إلى ماسبق أن بعض الامهات كذلك الآباء اعتادوا أن يرضوا ابنائهم بالحلو كالشكولاته والكرمله .. الخ وهذه علاوة على أضرارها التى تجلبها للصغار خصوصا ، تخلو تمام الخلو من الفيتامينات ، فى حين أن الطفل يحتاج إلى الفيتامين بكثرة لمساعدته على قوام جسمه ونموه . وإذا استبدل بذلك كوب من عصير الليمون أو البرتقال أو الحلوى المصنوعة من مح البيض أو بعض المربيات ، بلا شك تكون أفيد بكثير وأنها ترضى الطفل وتقنعه بل ياحبذا لو تهتم الام دائما باعطائه الفواكه وخصوصا الطماطم المسكرة بالعسل أوعصير الفواكه الحلو لابنها بدلا مما سلف ذكره على شرط أن تكون طازجة فتقتصد كثيرا من متاعبها وتسعد ابنها فى صحته وتكون قد عملت بالمثل الانجليزي القائل « تفاحة فى اليوم تمنع زيارة الطبيب »

وفى الأخير أقول أن تمكنا من معرفة انواع الفيتامينات والمواد الغذائية التى تحويها ، سهل لنا كيف ننتقى غذائنا من النباتات ومستخرجاتها والحيوانات ومستخرجاتها التى تحوى أغنى كمية من الفيتامين . وأمثال لذلك : الطماطم واللبن والبيض والخميرة والسلق والبرتقال والبرسيم الخ مما تحتوى على أكبر كميات من الفيتامينات

وهذا البحث يقودنا بأن لا نتعاطى مثلا الدقيق الابيض إلا ما يحتاجه جسمنا من نشويات كذلك الارز المقشور . ونقيس على ذلك كثير . ويحسن أن نطلب دائما المواد النشوية التى تحتوى فيتامين كذلك الأمر مع البروتين والزيوت وبذلك نكون قد حصلنا على أجود الاطعمة المغذية والمانعة للضعف الذى يعرض لعدوى الامراض

الانسان : هذا المجهول

خلاصة كتاب للعالم الفرنسي الكسيس كاريل

من الكتب التي لفتت الأنظار هذا العام كتاب « الانسان : هذا المجهول » لمؤلفه الكسيس كاريل

والكسيس كاريل هذا رجل فرنسي استقدمه معهد روكفلر في الولايات المتحدة لكي يقوم بتجارب علمية ، وهو معروف بأسلوبه الخاص في التجارب . فانه ينزع نسيجا من لحم الحيوان أو ينزع أحيانا قلبا كاملا من الضفدع أو غيرها ثم يضع النسيج أو القلب في سائل يحتوى الغذاء الذى يحتاج اليه الجسم الحى . ثم يجدد هذا الغذاء باخراج المواد الفاسدة منه على نحو ماتخرج الكليتان المواد الفاسدة من أجسامنا

وقد استطاع بهذه التجارب أن يجعل بعض الأنسجة تعيش وكأنها لا تعرف الموت واهتدى إلى أسرار في طبائع الجسم الحى ربما لم يئن الأوان للانتفاع بها

ومن هذه التجارب يرى القارىء ان الكسيس كاريل اخصائي أي انه يختص بدرس الأنسجة الحية وعلاقة الحياة بالكيمياء . ولكنه مع ذلك قد كتب هذا الكتاب لحمل على العلماء لتفشى الاخصاء بينهم . وسوف أتناول هذا الكتاب في فرصة أخرى ولكني هنا أعرض للقارىء هذه المسألة أى مسألة الاخصاء وضررها المؤكد كما أوضحه هذا العالم الاخصائي نفسه

فانه يقول ان العلماء قد بالغوا في الاخصاء . وهم يحبون هذا الاخصاء لأنه من الجهة الواحدة سهل إذ ان العالم يسير في طريق معين ومعبد ويدرس مسألة واحدة يتوفر عليها بكل قواه . ثم هو من ناحية أخري يؤدى إلى نتائج سريعة . ولذلك يقبل عليه العلماء ويكرهون التعميم . فان عالم الكيمياء يكره أن يكلف درس الطبيعيات ولو طولب بدرس الطلاق والزواج لعد ذلك خروجا عن المألوف إذا لم يعده ضربا من الجنون . وكذلك دارس الزراعة لا يفكر في درس المذاهب الاجتماعية وهو يعدها بعيدة عن اختصاصه لأن مهمته الاصلية أن يعرف كيف يقى النبات من الامراض والآفات وكيف يزيد الغلات . وليس له شأن بعد ذلك في الطريقة التي توزع بها هذه الغلات بين السكان

وقد أدي هذا الاخصاء إلى فوائد كبيرة لا تنكر . ولكنه أدى أيضا إلى أضرار فادحة زعزعت

الكيان الاجتماعي في الأمم المتمدنة وبلغ أثرها الأمم المتوحشة . فان الاخصاء في علمين اثنين، هما الكيمياء والطبيعيات قد هدى الانسان إلى مكتشفات ومخترعات في الزراعة والصناعة والملاحة والحرب جعلته يمتاز في هذه الأشياء كلها بقوة لايعرف كيف يتصرف بها . فان الأسمدة الكيماوية زادت غلات القمح زيادة كبيرة جداً في جميع الامم الزراعية كما ان استعمال المحاريث الموطرية قد زاد مساحة الارض المزروعة بالقمح وكانت النتيجة ان أقطاراً مثل كندا أو استراليا اضطرت الى احراق محاصيلها منه . وكذلك أنشئت مصانع عظيمة تخرج من المنتجات ما ليس في استطاعة الامم استهلاكه حتى أصبحت تضطر إلى اغلاق أبوابها والقاء العمال في عطل وفقر . وقد عرفت مواد كيماوية مميتة لو استعملت في حرب كبرى لكانت خطراً على الحضارة

والسبب لذلك كله ان الاخصائيين يحبس كل منهم نفسه في معمل فيدرس في لذة وحماسة ويكتشف ويخترع وهو لا يبالي ماذا يكتشف وماذا يخترع من حيث علاقته بالهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها فهو يفرح عندما يعرف طريقة جديدة لزيادة السرعة في الطائرات أو عندما يكتشف سماداً جديدا أو غازا آخر يفتك بالعدو وقت الحرب . ولو أن هذا الاخصائي كان يدرس الدين إلى جنب الكيمياء أو يدرس المذاهب الاجتماعية إلى جنب الطبيعيات أو السيكلوجية الى جنب الطبيعيات لما كان هذا التخبط الذي نراه في العالم هذه السنوات الأخيرة لان هذا التخبط أو هذه الفوضى هي ثمرة التقدم العظيم في بعض العلوم دون البعض حتى لم يعد هناك تكافؤ فالعلوم لا تسير كلها صفا واحدا متكافئة متعاونة على الخدمة البشرية وانما يتقدم بعضها بعضها الآخر حتى أصبح الاختراع الجديد في بعض الآلات بدلا من أن يؤدي إلى زيادة الخير والرخاء يؤدي الى زيادة الشر والفاقة فان المخترع انما كان يقصد الى كثرة الانتاج من الاقلال من الجهد البشري . ولكن اختراعه هو عكس ما قصد اليه لانه ينتهي بطرد العمال الزائدين الذين أدى الاختراع الجديد إلى الاستغناء عنهم . وهذه الاسمدة الكيماوية والمحاريث الموطرية ووسائل النقل العظيمة التي زادت غلات القمح في العالم بدلا من أن تستعمل لمكافحة الجوع قد أصبحنا نحرقها لنتخلص منها أو لنحافظ على الثمن الموافق لها

وإذن ماذا يقترح الكسيس كاريل ؟

يقترح ايجاد علماء جدد يصح أن نسميهم بالحكماء يدرسون علما جديدا يمكن أن نسميه « البشريات » أي يرصدون حياتهم لدرس جميع المعارف ويحاولون التوفيق بينها بحيث لا يؤدي أحدها الى الضرر . فان المعارف في ذاتها ليست مضرة ولا مفيدة. وانما هي كذلك من حيث علاقتها بالانسان أي البشر . فاذا ابتكرنا علما جديدا نطلق عليه اسم « البشريات » ندرس فيه الآثار التي تنشأ من كل اختراع أو اكتشاف جديد في العلوم فاننا نستطيع أن نقي الحضارة من الفوضى

التى تعانيها هذه الايام وسوف تعانى أكثر منها فى المستقبل اذا استمر الاخصاء على ما هو عليه من النشاط

ولكن من هو هذا القادر على أن يدرس جميع العلوم وعلى أن يقدر أثرها بالبشر فان الاخصاء فى علم ما يحتاج الى عشرات السنين فكيف بالاخصاء فيها كلها أو ما يقرب من ذلك

ان كاريل يسلم بالصعوبة . وهو لذلك يقترح اختيار هؤلاء العلماء الجدد منذ الطفولة وتهيئتهم لهذه المهمة فيجب أن يكونوا من أرومة حسنة معروفى الاباء فى قوة الذهن وطول العمر وسلامة الغرائز . ثم يعلم هؤلاء العلماء وترصد لهم المؤسسات للدرس المثمر مدى ٢٥ سنة يطمئنون فيها على عيشهم وهنائهم وتترك لهم الحرية المطلقة فى الدرس والتأليف

* * *

وكاريل هو قبل كل شىء بيولوجى يدرس الأجساد فهو لهذا السبب يفهم من الرقى أنه يجب أن يكون بيولوجيا فى أجسامنا وعقولنا وغرائزنا وليس فى بيئتنا . بل هو يرى أننا قد وصلنا الى حال من الحضارة تقتضى استنتاج طبقة جديدة من المفكرين الحكماء يستطيعون حل المشاكل القائمة ومعالجة الادواء التى تتكاثر وتستعصى . فان الازمات الاقتصادية تتوالى والجنون يكثر والجرائم فى ازدياد . وليست هذه جميعها عائدة الى أن المؤسسات الاجتماعية سيئة فقط بل هى تعود أيضا الى أن العقول المدبرة عاجزة عن التدبير فالعالم فى حاجة الى عقول جديدة تستطيع أن تشق الطرق وتسن الخطط للاصلاح المبتكر على نحو ما كان يفعل رجال النهضة فى القرن الخامس عشر فان مما كان يمتاز به هؤلاء الرجال تلك النظرة البكر التى كانوا ينظرون بها الى الدنيا واحتقارهم العظيم للفلسفات . ويرى كاريل أننا فى حاجة الى هذه النظرة فلا نتقيد بفلسفة ولا نخضع لطريقة فلسفية بل نعمد الى بحث الاشياء والانتفاع بالمكتشفات والمخترعات العلمية

لقد استطاع رجال النهضة أن يخرجوا أوربا من طرق التفكير الفلسفى أو اللاهوتى الى الطرق العلمية الحديثة وليس بعيداً أن تكون علة الارتباك الحاضر ان نشاطنا الذهنى معطل بالفلسفات الشائعة وأنه عند ما نخرج منها تنفتح أمامنا أبواب جديدة للبناء والتأليف بدلا من الهدم والتحليل الذين يسيطران الى مدى بعيد فى الابحاث العلمية الحديثة بل ربما كانت فلسفة ديكارت الثنائية عقبة فى سبيل التحرير الذهنى

ويرى كاريل أنه يمكن ايجاد حكماء يدرسون جميع العلوم ويستطيعون الاستنباط البنائى منها للهيئة الاجتماعية وذلك بشرط أن نحوطهم بما يحميهم من تكاليف العرف والعادات السائدة . فلا نطالبهم بمحاضرات أو بهموم العيش أو بحضور المؤتمرات والحفلات . فان كثيراً من وقت العلماء يذهب الآن فى مكافحة ظروف مختلفة من الصعوبات تقتل وقتهم وتفنى قوتهم بلا طائل

ومؤسسة روكفلر التى يعمل فيها كاريل هى مثل لما يجب أن تكون عليه المعاهد فى المستقبل لاستنتاج هذا الجيل . فانه يجب أن تؤسس المعاهد باوقاف تحبس عليها تديرها هيئات علمية لها الحق فى توجيهها وتعيين الابحاث التى تنفق عليها . ثم يعيش فيها علماء حكماء مطمئنون على عيشهم غير مهددين إذا ارتأوا من الآراء مايخالف العرف والعادات الاجتماعيـة ولهم من وسائل البحث كل مايحتاجون اليه

* * *

ولكن إذا كان هذا هو الموضوع الاصلى لكتاب « الانسان : هذا المجهول » فان كاريل يتناول أشياء كثيرة تتصل ببحثه وهى إذا لم تكن جـديدة فى عمومها فانها طريفة فى تفاصيلها . وغاية المؤلف منها أن يصل الى فهم الانسان . فهو مثلا يقول ان الفردية الانسانية كما تبدو لنا فى تقاسيم الوجه والجسم والذهن كذلك هى بادية فى الخلايا الحية لهـذا الجسم . فاذا أردنا أن نرقع الجلد فى الجسم الحى ونقلنا اليه رقعة من مكان آخر منه هو نفسه وخطناها بما حولها لم نلبث أن نرى الرقعة تنمو وتحيا حتى تعود جزءا متمما لسائر الجلد . ولكننا اذا نقلنا رقعة أجنبية وخطناها بما حولها لم نلبث أن نراها تنكمش وتموت . ومن هنا نفهم أن الفردية تصل الى كل مكان من جسمنا

وهـذا الجسم الانسانى هو غاية فى الاقتصاد والدقة . فان السائل الذى يغـذونا ويحمل عنا فضلاتنا لايزيد فى وزنه على عشر الجسم . ولكن كاريل عند مايحفظ نسيجا حياً فى سائل صناعى يحتاج الى سائل يزيد على وزنه ألفى مرة

والكتاب مشحون بهذه التفاصيل الصغيرة الطريفة التى لايمكن استيعابها فى مقال



الحب .. قصة روسية

للقصصي الروسي أنتون تشيكوف
ترجمة الاستاذ حسن حبشي

« الساعة الثالثة صباحا ، وليل ابريل الهادىء يطل عليّ من نوافذ حجرتي ، والنجوم الزهر المتلألئة تتطلع إليّ في دلال . وليس في مكنتي أن أنام لما يحوطني من سعادة وسرور . إن احساسا غريبا ملك عليّ نفسي ، واحتواني من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ . لا أعرف كنهه ، ولم أبحث عن سره وخفاياه . والوقت يمضي سريعا . . . فيالي من غبي أبله ، وكيف يمكن لرجل يرى نفسه كنجم سابح في الأثير أن يحلل هذا الشعور ، وهل يمكنه ذلك إذا جاءه البشير بأنه قد ربح ألفي روبية ؟ وهل تساعده حاله على هذا التفكير ؟ »

بهذه الجمل أو ما هو في معناها ، بدأت رسالتي الغرامية إلى « ساشا » وهي فتاة في التاسعة عشر من عمرها كلفت بها . وقد كتبت الرسالة خمس مرات ومزقتها ، وأعدت كتابتها أخيرا . وأمضيت في ذلك فترة كبيرة كما لو كنت أكتب قصة طلب الى وضعها . ولم يكن هذا رغبة مني في اطالة الرسالة أو اجادة عباراتها ، ولكن أملا في أن أجعلها بدون نهاية ، وما ألذ جلوس المرء في غرفة المطالعة ، يخيم عليه الصمت وتحوطه السكينة مستعيدا في خياله أحلام اليقظة ، بينما ليل الربيع الجميل يطل عليه من نافذته ! ! وقد رأيت خلال سطور الرسالة صورة محبوبة لدي هو شبح حبيبتي وظننت اني واياها على المكتب ، وظللت أكتب وعيناي مصوبتان الي يدي كأنما كانت ساشا تضغطهما بكفيها الرقيقتين . واذا نظرت خلفي خيل الى أني أرى طيفا جميلا عند الباب . . فعند مدخله بالامس وقفت حبيبتي « ساشا » تنظر الى بعد أن ألقت كلمة الوداع . ولم أكن لأفكر في شيء أبدا غير صورتها ككل رجل يعشق أي امرأة . وحين التقى ناظراي بعينيها الجميلتين عرفت أنها تيمتني واني كلفت بها . وهذا كل ماحدث بيننا اذ ذاك

ما أبهي اللذة حينما تمضي رسالة غرام ، ويتمهل العاشق في ارتداء معطفه وقبعته ومن ثم يتوجه الي صندوق البريد فيودعه الكنز . . لقد اختفت النجوم من السماء وظهر مكانها شريط أبيض طويل جهة الشرق ، وقطع السحاب المتناثرة تشرق على أسطح المنازل القائمة ، وبهذا الشريط

الابيض اكتست السماء لونا شاحباً . ولكن المدينة لم تزل بعد فى سباتها العميق ، وقد خرجت عجلات المياه الي الشوارع وفى هذا السكون الشامل رن صفير البوق من مصنع بعيد موقظا عماله وبجوار صندوق البريد المبلل بالندي المتكاثف يمكنك أن تتبين شبحا لحارس عملاق ، مرتديا معطفا من جلد الماشية . وفى يده عصاه . وهو ليس بالنائم أو المستيقظ ولكنه بين بين . . .
ولو كانت الصناديق تعلم ما يقاسيه الناس فى سبيل الوصول اليها لما كان عندها هذا الهواء الشديد . وعلى كل فقد قبلت صندوق البريد مرارا ، وعلمت انه أجل شيء يقدم اليه الشكر ، وأرجو كل من ذاق نيران الحب أن يتذكر كيف يلقى وديعته فى الصندوق ومن ثم يتجه الي الفراش ويجذب اليه غطاءه ، وكله اعتقاد وحزم بأنه حالما يستيقظ فى الغد يرى نفسه محاطا بذكريات الامس فيتوجه الى النافذة فى سرور ، وضوء النهار يتخذ سبيله الي حجرته خلال الستائر الكثيفة . ولنعد الى الواقع . فى ظهر اليوم الثانى جاءتنى وصيفة « ساشا » تحمل الي الرد التالى :

« أكون سعيدة لو تفضلت بزيارتنا اليوم . سأنتظرك . »   صديقتك . س .

ولم تزد علي ذلك شيئا ورغم ما فى رسالتها من الخطأ الهجائى ، ورغم غلافها الساذج الطويل فقد شعرت بلذة وسرور يتجاوبان فى أنحاء نفسى وتذكرت فى الخط المنحنى سير « ساشا » ورفعها لحاجبيها حينما تضحك ، وحركة شفتيها . ولكن ما حوته الرسالة غير ذلك لم يقع لدى موقعا حسنا اذ ليست هذه طريقة الاجابة على الرسائل الغرامية ثم لماذا أتوجه الى منزلها وأظل منتظرا نهاية لقائها لامها الضخمة وأخواتها وحثالة أقاربها ، وليس ثمت أبغض من أن يكبح جماح الشخص فى شرح عواطفه ، وذلك لتطفل امرأة عجوز قبيحة قد أزينت . أو طفلة صغيرة بلهاء تزعجنا بكثرة أسئلتها ولذا فقد طلبت من « ساشا » بوساطة الخادم أن تختار أى حديقة لى نتقابل ، وسرعان ما أجابت سؤالى ، وكأنى قد ضربت علي الوتر الحساس منها

وحوالى الرابعة أو الخامسة ظهرا اتخذت سبيلى الى أبعد مكان منعزل فى الحديقة ولم يكن فيها شخص سواى ، ورأيت « ساشا » مولية اياى ظهرها . وتبين لى من هيئة وقوفها أن الخوف يعتريها . وخيل الى أن كل نقطة فى ثوبها تهتف بى : صه ! !

وكانت الفتاة ترتدى ثوبا بسيطا من القطن ، وقد أسدلت على وجهها نقابا أبيض زيادة منها فى التستر ولكى لا ازعجها اقتربت منها على أطراف أصابعى وهمست اليها فى صوت منخفض

ومما أذكره الآن أنى لم أكن موضوعها الجوهرى فى هذه المقابلة ، فلم أنل من خيالها

أ كثر من صمت الاشجار الحزينة . ولكن كيف يعرف الرجل فى مثل هذه الاحوال اذا كانت حبيبته تبادله الغرام ؟ وهل الحب عندها ضرورة أم هى تعده شيئا تافها ؟

وغادرنا الحديقة الى منزلى ، ويالها من لذة . فان فى خلوة الشاب مع حبيبته فى منزله نشوة أشد من نشوة الخمر والموسيقى . وفى هذه الآونة يتحدث الرجل عن أمله فى المستقبل وامل فى هذا الكلام والثقة بالنفس والغرور بالامانى كثيرا من الاضاليل وغالبا مايدبر الخطط ويرسم المشاريع ويندفع فى تعظيم نتائجها . ولا يصدقه سامعه الا اذا كان جاهلا . ومن حسن حظ الرجال أن حبيباتهم يندفعن فى تيارهم وقد أعمى بريق السعادة المنشودة أعينهن وملأ أذهانهن . وعدن لا يعرفن من الحياة شيئا . وبدلا من أن يقفن فى سبيل تلك الترهات يسبحن فى عالم من السعادة فيعلوهن شحوب الدهشة وينصتن فى سرور الى ألفاظ الجنون والبلاهة

وقد أصغت الى « ساشا » بجوارحها ، ولكنى سرعان ماتبينت فى وجهها غياب ذاكرتها عنى . ذلك لأنها لم تدرك سر كلامى . ولم تفهم كنه ماأريد ، اذ لم تنل فائدة مما لقنتها عن أملى فى المستقبل السعيد ، وظهر لى أن وقتى ضاع سدى فى شرح خططى ومراميها . أما هى فقد كانت مشتاقة أن تعرف أى حجرة ستخصص لزينتها . ولون الورق الذى يكسو حوائطها ، ولماذا أقتنى بيانا صغيرا ، ولا يكون ضخما الى آخر هذه الاسئلة التافهة . ثم راحت تختبر فى دقة متناهية كل ما كان على منضدتى من صور فوتوغرافية . وتخلع طوابع البريد المستعملة بحجة أنها فى حاجة اليها ثم قالت لى فى صوت منخفض :

— أرجوك أن تجمع لي الطوابع القديمة اذا سمحت

ثم عثرت على بندقة فحطمتها محدثة جلبة والقت بها الى فيها ، ثم القت نظرة على مكتبى ومحتوياته وتساءلت :

— لماذا لا تلصق وريقات صغيرة على غلاف كتبك ؟

— ولماذا ؟

— حتى يكون لكل كتاب رقمه . و أين أضع أنا كتبى . لقد اشتريت كثيرا منها كما تعلم

— وأى كتب عندك ؟

فرفعت حاجبيها فى دهشة وفكرت لحظة ثم قالت :

— كل شىء

ولو سألتها حينذاك عما لديها من الافكار والرغبات لرفعت حاجبيها وتأملت لحظة ثم قالت « كل شيء »

وطفقت أريها حجرات المنزل واحدة بعد أخرى ، وقد تركته في غير انتظام مدة الخطبة حتى الزواج . واذا سمح لي القارىء أن أقول رأيي الخاص نتيجة تجاربي الشخصية فان المدة التي تلت الخطبة حتى الزواج كانت سوداء . فهي بعيدة جد البعد عن حياة الاعزب وعن معيشة المتزوج ، فالرجل الخاطب غير هذا وذاك كمن ترك شاطىء النهر وتوسطه ثم خارت قواه فلم يدرك شاطئه الآخر

وكنت أختلس من وقتي لحظات أتوجه فيها إلى شريكة حياتي ، والآمال تحوطني من كل جانب ، وخيالي يفيض بشتى الرغبات والأماني والاقتراحات الجمة ، وكان يخيل الى أنه لا تكاد تفتح لي الباب حتى أرى نفسي غارقا إلى القمة في بحر في السرور ولم أكن أدخل على ساشا في منزلها حتى أراها في جمع حشيد من أقاربها وسكان المنزل وقد ملك مشاعرهم واستولى علي لبهم الأثاث ، فلم يعودوا يفكرون في شيء سواه « وأغتنم هذه الفرصة لأقول إنه قد مضى شهران في إعداد ملابس العرس » وكانت رائحة الشمع والدخان تملأ جو المنزل ، والحرز يهشم أني وضع القدم ، وفي الحجرتين الكبيرتين تقوم أكوام من التيل والحرير والصوف ، وبين هذه الامواج الزاخرة تطل « ساشا » برأسها الصغير ، وقد قبضت بأسنانها على شريط من الخيط وكانت جماعة الخياطين تستقبلني بهتافات السرور وسرعان مايتوجهون بي الى غرفة الطعام حتى لا أضيع عليهم الوقت وأظل فيها رغم إرادتي متحدثا الى « بيمبوفنا » إحدى قريباتها الفقيرات وتلمحني « ساشا » فتبدي أسفها وتسرع من أمامي وفي يدها كرة من الخيط ،واذا لمحت في عيني بريق الضجر صاحت بي !

— رويدا رويدا . لن أغيب أكثر من دقيقة ، أخشى أن تتلف « ستبانيدا » الحمقاء ثوبي وانتظر فترة ثم أثور حانقا وأبرح البيت مجولا في الشوارع . واذا ماذهبت اليها ووجدتها في الصالة على أهبة الخروج مع أمها تقول لي :

— سنتوجه معا لشراء بعض القماش، ونستبدل بالقبعة أخرى فهل لك في مصاحبتنا ؟

وعلى ذلك تذهب تدابيري أدراج الرياح ولا أجد مندوحة من أن أمضي معهما وليس ألم عندي أكثر من أن أرى السيدة تساوم التاجر ،وشد ما أخجلني أن أري « ساشا » بعد استعراضها كميات جمة من البضائع وانزالها الثمن الي الحضيض تخرج من الحانوت صفر اليدين لم تشتر شيئا ولم

تطلب من التاجر أن يقطع لها بعض القماش . وحين تبرح ساشا وأمها الحانوت ، تتجادلان وتحتمان بأن لون الورد المزين للقبعة قاتم أكثر مما يجب وهكذا . واليوم وقد تزوجت « ساشا » والليل ضارب بأطنابه على الـكون أجلس فى حجرة المطالعة وتجلس هى خلفى على مقعد وثير وتلوك فى فمها بصوت عال شيئا لا أتبينه وأطلب زجاجة من البيرا وأقول :

— ساشا : هيا ابحثى لى عن البريمة . هيا ياساشا ابحثى عنها

فتقفز « ساشا » من مكانها وتثور فى عنف باحثة عنها بين تلول الأوراق الممزقة وتعود بدونها وتجلس هادئة ، وأكابد انا الظمأ المميت والغيظ المؤلم فأصرخ بها .

— ساشا ابحثى عن البريمة

فتقوم غاضبة بين أكداس الورق المتناثرة وأسمع صوت خشخشة الأوراق فأخاله اشتباك الاسنة والرماح وصليل السيوف البائرة فأدع مكانى وأمضى باحثا عنها ، حتى أعثر عليهـا أخـيرا فتمضى هي الى المنضدة وتعتمد عليها

فأقول :

— الأجدى لك ياساشا أن تقرئى شيئا يفيدك

فتأخذ كتابا ثم تجلس قبالتى وتبدأ فى تحريك شفتيها مستغرقة فى أفـكارها فأقول محدثا نفسى ، ومتأملا إياها :

— لقد قطعت من عمرها عشرين ربيعا ولو قارنتها بفتى متعلم فى مثل عمرها لبذها فى آرائه وأفـكاره وذكائه ومعرفته

ولـكن سرعان ما أسامحها كما أغفر لهذه الجبهة المنبسطة والشفتين المتحركتين كذبهما وإنى لأذكر كيف كنت فى أيام حبى الأولى لغير « ساشا » اهجر عشيقاتى لبقعة على جواربهن أو لـكلمة تافهة أو لعدم اعتنائهن جيدا بنظافة أسنانهن ولـكنى اليوم اتسامح فى كل شىء ، وأغفر لها كل شىء . وأصمت حين تبحث عن البريمة ، وأغفر لها عدم النظام والحديث الممل . نعم أسامح ساشا فى كل هذا كأنما أخطاؤها أخطائى ، وكل ما كان يؤلمنى قديما أصبح مصدراً لولهى وهيـامي . وذلك كله يرجع إلي حبى . ولـكن ماهو الحب ؟ ذلك مالا أعرف حقيقته

الازهر وتدريس اللغة العربية

بقلم الدكتور روسل جولت عميد كلية الآداب بالجامعة الامريكية

للازهر أثر واضح فى مناهج التعليم وطرق التدريس فى مصر . ففى اللغة العربية لا تزال مصر تتبع أساليب تقليدية فى تعليم الناشئة اللغة القومية رغم التغيرات الكبيرة التى طرأت على تدريس اللغات فى البلدان الاخرى . ولا مشاحة فى أن اللغة فى مصر مسألة محفوفة بالمصاعب وتدعى هذه المسألة عادة باسم Bilingualism أى ازدواج اللغة ، لان الطالب يواجه اللغتين ، الدارجة ، والفصيحة ، وكل منهما تنافس الاخرى ، وان رجعتا إلى أصل واحد

ولغة الكلام فى مصر هي الدارجة ، اذ أن جميع السكان على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية يتكلمون بها . وان كانوا لايكتبونها . أما اللغة التى تقرأ وتكتب فهى اللغة الفصحى

ومن أقوال يعقوب ارتين باشا ، وزير المعارف الاسبق ، فى هذا الصدد ما يأتى :

« لذلك عندما يبدأ الطفل المصرى حياته المدرسية ، لايقتصر تعليمه على تمثيل الكلام المعروف لديه بحروف واشارات كتابية ، كما يفعل الطفل الاوروبى ، ولكن فى الحقيقة ما يتعلمه هو لغة أجنبية أخرى ، فوق قراءة هذه اللغة وكتابتها . ومثله فى هذه الحالة على وجه التقريب مثل طفل انجليزى يسمع اللغة الانجليزية الدارجة وينطق بها فى المدرسة والمنزل على السواء ، ولكن لايسمح له أن يقرأ أو ان يكتب الا باللغة الانجليزية التى كانت معروفة فى عصر الفريد الكبير . ويظهر أن تعليم اللغة العربية من المدارس الاولية الي الازهر ، يرمي الى احلال اللغة الفصحى محل اللغة الدارجة ، كتابة على الاقل . وقد سبق لنا أن أشرنا الى العوائق الجسيمة التى كانت حائلا دون تطبيق أساليب الطرق الحديثة فى التعلم من جراء هذا الاسلوب التقليدى الذى يرجع الى القرون الوسطى (Scholastic) »

ونظرا للصعوبة التى ينطوى عليها هذا الازدواج اللغوى Bilingualism فتعلم القراءة والكتابة أصعب ، على الارجح ، على الطفل المصرى منها على الاوربى . وينتج من هذا التعقد فى عملية التعلم أن المتعلم يلجأ الي الحفظ وحشو الذاكرة أكثر منه الى التفكير واستعمال الذكاء وبهذا يحرم الطفل من تربية الذوق السليم ولذة المطالعة فى السن السيكولوجية المناسبة . فطبيعة المادة وصعوبة عملية التعلم تحولان دون الطرق الحديثة التى تنبه ملكة الذكاء وتسهل استيعاب مايقرأ ، فضلا عن أن العربية فقيرة فى كتب الاطفال . وهناك مسألة أخرى سيكلوجية تتعلق بهذا الشأن

ولها من الاهمية مكان عظيم وهى أن الطفل منذ اول عهده بالمدرسة يصادف باستمرار عقبات تفكيرية لأنه مضطر أن يفهم ويعبر بغير لغة أمه . وهذا مما يعطل التقدم الفكرى بلا مراء

وقد كتب سير وليم ولكوكس رسالة شائقة فى هذا الموضوع أشار فيها الى أثر اللغة المزدوجة فى تفكير الطلاب المصريين وبنى هذه الرسالة على اختباراته فى مدرسة الهندسة الملكية كأستاذ وممتحن

ان بلادا كمصر نسبة الامية فيها كبير الى حد يعتد به ، جديرة بأن يعير المربون فيها أهمية الي هذا الموضوع الخطير فيسهلون على أبنائها تعلم اللغة القومية على الوجه المنشود . ولعل الصحافة والحركة القومية كان لها الاثر الطيب فى القيام بهذا الواجب المقدس ، إذ أن كلا منهما أخذ يعبر عن آرائه ورغباته بلغة تسمو فوق العامية ، ولكنها لا تتوغل بعيداً عنها . ومع أن هاتين القوتين تعملان علي هذا الاصلاح المرغوب فيه ، فان المعاهد العامية لا تزال بعيدة عن هذا الاصلاح لانها مقيدة بتقاليد الف عام ، ولانها تعتقد أن العربية الكلاسيكية هي هى اليوم كما كانت أمس ، ولا تقبل تغييراً ولا تبديلا كسائر لغات العالم ، وان المرانة على أوضاع اللغة القديمة وأساليبها هى الطريق الامثل فى تعليم اللغة العربية . وبين المصريين من بعيدى النظر الذين درجوا بين أحضان المعاهد العلمية الحديثة من لا يخفى عليه هذه المشكلة التى هى أعقد من ذنب الضب ، وان كانوا — نزولا على الرغبات التقليدية — مقيدين بطرق التعليم الكلاسيكية رغما منهم .وقد ذكر العلامة الدكتور كلاباريد فى تقريره هذه العبارة ، وهى .

« لقد شرح لى مفتشو التعليم ونظار المدارس الصعوبة التى يلاقيها تلاميذ الفصول الابتدائية حتى العليا منها ، وتلاميذ مدارس المعلمين فى كتابة اللغة العربية الفصحى ,وتساءلوا إذا كان الانسب أن يسمح لهؤلاء التلاميذ أن يكتبوا مذكراتهم الخاصة باللغة العامية »

واذا أضفنا الى هذه الصعوبات ما تطلبه السلطة الدينية من قدسية اللغة الكلاسيكية ، اتضح لنا بجلاء أن تعليم اللغة يصبح آلياً « أتوماتيكيا » جامدا ولا يخفى ما فى هذا من الاثر السيىء فى عملية التفكير واستعمال الذكاء

غير أن هذا الاثر ليس مقصوراً على تعليم اللغة العربيه بل تعداه الى التربية المصرية من جميع نواحيها . وذلك أن التعليم أصبح ذا طابع خاص ، هو الحفظ والاستذكار بدلا من تمثيل المواد الدراسية أي هضمها . وقد مضى علي هذه الظاهرة فى التربية المصرية الف عام على الاقل . وفى خلال هذا الزمن الطويل أصبحت الوسيلة لاستيعاب المعارف هى حفظ النصوص المسلم بها

فى الكتب والتى ينظر اليها المتعلمون بعين الاجلال والاحترام . ولما كانت الطريقة الوحيدة للدرس هي طريقة الاستذكار المعروفة فى الازهر منذ الف عام ، فان هذه الطريقة قد تغلغلت فى المدارس المصرية ، وتسربت الي المدارس الحديثة التى أنشئت على النمط الاوربي . وقد أشار اللورد كرومر الى هذه الظاهرة بقوله : « . . . تلك الطرق التى كساها الزمان بلباس الاجلال والاحترام والتى تثقل فيها ذاكرة الطالب المصري ، ولا يرن عقله »

وقد جاء فى كتاب التربية السنوى الذى يصدر فى انجلترا « ١٩٣٢ » صفحة ٩٩٢ هذه العبارة وهى : « وللمصرى ميل تقليدى الى استذكار القواعد وحفظها عن ظهر قلب عوضا من أن يفكر ويتأمل ويبحث عن الاسباب ومسبباتها »

ومع أن تقرير المستر مان « مفتش التعليم فى انجلترا » محوط بسياج من التحفظ والاحتراس والاعتدال فى لغته ، فانه أصلى هذه الظاهرة فى التربية المصرية نارا حامية بهذه الكلمات اللاذعة اذ قال :

« ومهما شددنا فى القول فاننا لا نتجاوز الحد إذا قلنا وألححنا فى القول بأن الاستذكار ليس السبيل إلى المعرفة . وكل محاولة يراد بها احلال ملكة الذاكرة السفلى مكان ملكة الفهم العليا لا بد أن يدفع عنها ثمن باهظ ، وما هذا الثمن سوى أضعاف ملكات التفكير والتخيل والاستدلال لان كل ملكة لا تستعمل يعتريها الوهن والهزال . والطفل الذى يقضى أيامه المدرسية فى الاستسلام للحفظ والاعتماد على الذاكرة فى سلسلة من الالفاظ لا يفهمها ولا يحاول فهمها ، لابد أن يشب رجلا عاجزا عن التمييز بين الحق والباطل . وكلما اتسع نطاق هذا النوع من التعليم فى نظام التربية القومي جاءت العاقبة وبالا وساء أثرها فى الثقافة العامة فى طول البلاد وعرضها ، وأصبح التعليم مرادفا للحذلقة ، واكتست ملكات الذكاء النشيطة العاملة بغشاء من المواد الميتة تزداد قسوة عاما بعد عام »

ومن الخطأ أن نعتقد أن أثر هذه الطريقة الازهرية مقصور على تدريس اللغة العربية أولا ، وطرق التدريس عامة . فان عقلية خاصة قد نتجت من هذه الطرق فتأثر بها عدد من أبناء الامة . وقد جاء فى رسالة قدمها الدكتور أمير بقطر لمؤتمر التعليم الذى عقد فى مدينة جنيف بسويسرا سنه ١٩٢٩ ما يأتى :

« ولقد خلق الازهر فى طبقه معينة من السكان عقلية خاصة ، عقلية تتصادم مع مبادىء القرن العشرين ومثله العليا ، عقلية أسدلت حجابا كثيفاً وأقامت حائلا منيعا بين ما نسميه العقلية الازهرية وعقلية سائر الشعب المصري ، عقلية لا تتفق إلا مع العصور القديمة الفطرية

التي نشأ فيها ذلك المعهد المبجل العظيم »

وقد كتب اللورد لويد المندوب السامي في مصر « ١٩٢٥ — ١٩٢٩ » عن أثر الازهر في بدء الاحتلال البريطاني ما يأتي :

« وكانت التربية الدينية في مصر تستأثر بها سلطة واحدة في مصر هي سلطة الازهر . وليس من شك في أن طرق التعليم فيها تلك التي كانت ترجع الى القرون الوسطى قامت حائلا دون تقدم التربية في مصر وتطورها . وطلبة هذا المعهد كانوا يحملون معهم التعصب المقترن بالغطرسة وقلما اتصفوا بالمرونة الفكرية أو خصب الخيال . وكم كانت تكون خطوة التقدم في ميدان التربية عظيمة لو انتشل ذلك المعهد العظيم من وهدته ؟ لو تم ذلك لزالت تدريجيا روح التعصب وعدم التسامح التي طالما عاقت تقدم مصر »

ونستطيع أن نقول في الختام ان أثر العربية « كما نراها في الازهر » لا يتفق مع التقدم الحديث في ميدان التربية . ونخشى ان الاصلاح الحديث في الازهر لم يكن الا من قبيل العناية بالسطح دون العمق . فادخال الادوات والاجهزة الحديثة وانشاء القسمين الثانوي والابتدائي وغير ذلك من الاصلاحات لا تجدى نفعا طالما كان النظام في حد ذاته مطبوعا بطابع القرون الوسطى

ومن المناسب أن نذكر بعض وجوه الشبه بين الثقافة العربية القديمة scholasticism التي قلنا انها ترجع الى القرون الوسطى وبين المركزية الفرنسية . وليس الغرض من هذا أن نقول، ان النظامين متشابهان كل المشابهة ، أو أن ننكر أن المركزية الفرنسية قد نشرت في فرنسا ثقافة عالمية . ولكنا نرمي الى التكلم عن وجود الشبه ونبرهن كيف أن المركزية الفرنسية لقيت في التربة المصرية مرعي خصيبا . فمع ان العربية القديمة لاهوتية دينية ، والمركزية الفرنسية عالمية ، غير أنهما متفقتان في أن كلا منهما يخضع لسلطه عليا تملى على الآخذين بها قبول كل ما يدلى به من الآراء بدلا من البحث الفردى والاجتهاد والتفكير . وقد أدى هذا حتما الى جعل النظم البيداغوجيه تسير كلها على وتيرة واحدة وطريق واحد ، وأن يعتمد الطلاب على الحفظ والاستذكار في مواد الدراسة . واذا قلنا ان مواد الدراسة التي دخلت مصر مع دخول الثقافة الفرنسية كانت غريبة على العربية ، فانه يجوز لنا القول كذلك أن الفلسفة العامة التي تسود على ادارة هذه المواد وادخالها في نظام التعليم لم تكن غريبة البتة

الصمت

قصة روسية تأليف ليونيد اندريف

وترجمة الدكتور صبري جرجس

دخلت زوجة الأب إجناتيوس عليه في مكتبه ذات مساء ... كان وجهها ترتسم عليه أمارات الحزن والالم ... وكان المصباح الخافت الصغير يهتز في يدها كأنما هو خائف يرتعد . فلما اقتربت منه لمست كتفه بأناملها واستطاعت بعد جهد أن تقول من خلال عبراتها

« أيها الاب : دعنا نذهب الى فيروشكا »

بيد أن الرجل لم يحرك رأسه عند سماعه هذه العبارة من زوجته ولكنه ارسل اليها نظرة جامدة من فوق نظارته ... نظرة طويلة فاحصة . فما كان من المرأة الا ان اشاحت بيدها الخالية في يأس وقنوط والقت بنفسها على ديوان منخفض

ومضت فترة استطاعت المرأة في خلالها ان تستجمع قواها وان تقول في نغمة حزينة متباطئة « كيف يمكن أن تخلو الشفقة من قلبيكما الى هذا الحد ؟ » وركبت وجه المرأة تقطيبة من الالم والحنق كأنما ارادت ان تعبر بها عن صلابة هذين الشخصين — زوجها وابنها

وعلت شفتي الرجل ابتسامة باهتة ثم نهض واقفا وأغلق الكتاب الذي كان يطالعه وخلع نظارته ووضعها في علبتها بتؤدة ثم بدا كأنه يتروى . وكانت لحيته السوداء الطويلة التي بدأ الشيب يقتحم سبيله اليها تتحرك في وقار هادىء فوق صدره مع كل حركة من حركات الحديث أو التنفس

وأخيرا انفرجت شفتا الرجل عن كلمة واحدة « حسنا . لنذهب »

فلم تكد اولجا ستيبانوفنا تسمعها حتى نهضت واقفة وقالت في لهجة متوسلة جبانة

« ارجو الا تعنفها ايها الاب ... فانت تعلم من اى طراز هي »

كانت غرفة فيرا في الطابق العلوي . وقد اهتز الدرج الخشبي الضيق تحت وقع اقدام الاب الثقيلة ومال برأسه كي يقيها الاصطدام بالسقف . ولكنه كان على ثقة من أن هذه المحاولة لن تنتهي الى نتيجة ما

قالت فيرا « لم جئتما ؟ » وهى ترفع ذراعها العارية الى عينيها وتلقى بالثانية على قطعة من القماش الابيض لا يكاد المرء يستطيع أن يميزها عنها لشدة ماعراها من الشحوب

وبدأت أمها تقول « فيروشكا » . ولكن العبرات خنقتها فلم تستطع أن تتابع الحديث

وقال أبوها محاولا أن يضفى شيئا من الرقة على نغمة صوته الجافة القاسية « فيرا ... الا تخبريننا ماذا يؤلمك ؟ »

ولكن فيرا لزمت الصمت ولم تجب

« فيرا ... الا ترييننا — امك وانا — جديرين بثقتك ؟ السنا نفيض بالحب لك ؟ السنا اقرب الناس اليك ؟ حدثينا عن متاعبك واحزانك وثقى انك لن تندمي على ذلك ... انظري الى أمك العجوز المسكينة .. انظرى كم تتألم من اجلك »

« فيروشكا »

وتابع الصوت الجاف حديثه وهو يهتز ... نعم فلا بد ان يكون شيء ما قد انكسر فيه

« وأنا ... انا ... هل تحسبين انى أرى الامر سهلا ؟ كأنما لا استطيع أن ارى الحزن يقتحم سبيله الى قلبك دون أن أعرف ما هو . . . انا ابوك لا اعرف ما هو . . . ايجوز أن يبقى الامر على هذا النحو ؟ »

ولكن فيرا لزمت الصمت ولم تجب

وأخذ الاب يمشط لحيته باصابعه فى حذر كأنما يخشى أن تشتبك فيها ثم تابع حديثه قائلا « لقد ذهبت الى بيترسبرج على الرغم منى . فهل انفرجت شفتاى عن كلمة دعاء واحدة عليك . . . انت يامن عصيتنى وهزأت بارادتى ؟ .. وهل امتنعت عن اعطائك ماتريدينه من المال ؟ . وهل تستطيعين الزعم باننى لم أكن بارا بك عطوفا عليك .. فلماذا اذن تلزمين جانب الصمت »

وسكت الاب ايجناتيوس عن الحديث وخيل اليه وهو واقف امام ابنته انه يرى شبحا هائلا مخيفا لاخطار غامضة اخذت تحوطها وتحدق بها وهى وحيدة ضعيفة لاحول لها ولا سند حتى ابتلعتها فى لجتها وغابت عن عينيه

فى تلك اللحظة فاض قلبه بكراهة هائلة نحو تلك المدينة المروعة الغامضة وامتلأت نفسه بالغضب من تلك الفتاة التى كانت تلزم الصمت فى عناء مثير

وفى النهاية تحركت شفتا فيرا فقالت فى نغم مهموم وهى تغمض عينيها

« ان بيترسبرج لاشأن لها بى .. وأنا لا اشكو شيئا .. خير لكما ان تذهبا الى الفراش فان الوقت متأخر الآن »

وهمست امها تقول « فيروشكا يا ابنتى الصغيرة العزيزة .. الا تعترفين لى ؟

ولكن الابنة قاطعتها فى ملل هاتفة « أماه »

وجلس الاب على مقعد وانطلقت من شفتيه ضحكة ساخرة ثم سألها فى تهكم

« اذن فليس فى الامر شىء »

وانتصبت الفتاة واقفة وهى تقول فى حدة « ابى .. انت تعلم انى احبكما .. وكل مافى الامر انى متعبة قليلا وسيمضى ذلك فى حينه . اذهبا للنوم الآن فاننى أيضا اريد أن انام . وغدا — أو فى أى وقت آخر — سنتحادث معا »

« دعينا نذهب »

« فيروشكا »

فصاح الاب بملء صوته « أقول لك دعينا نذهب .. إذا كانت قد نسيت الله فهل نحن ... »

ثم دفع زوجته بعنف نحو الباب وبينما كانا يهبطان الدرج تباطأت زوجته وقالت فى همس خشن

« انت يارجل المسئول عن هذه الحالة التى وصلت اليها . فمنك تعلمت كل شىء .. ان حسابك امام الله عسير . ما اتعسنى وما اعظم شقائى »

انهمرت الدموع من عينيها فحجبت عنها الدرج وزلت قدمها مرة أو مرتين عن الخطوة الصحيحة فكادت تسقط . وشعرت كأنما هى على وشك الوقوع فى هاوية مجهولة القرار

منذ ذلك اليوم لم يتبادل الاب كلمة مع ابنته . ومضت الابنة وكأنها لاترى فى الامر شيئا .. كانت تقضى الوقت هاجعة فى غرفتها أو متجولة فى المنزل .. تمسح على الدوام عينيها بيديها دون أن تنطق بحرف ... ومضت الأم تحيا فى هذا الصمت الموحش ... واستحالت روحها المرحة الى نوع من الانقباض والذهول فلم تكن تدرى ماذا تفعل

وبعد أسبوع خرجت فيرا للنزهة كعادتها كل مساء ... وكان هذا آخر عهدها بالحياة . . . إذ القت بنفسها تحت القطار فمزق جسدها اشلاء

وقام الاب إجناتيوس نفسه بمراسيم الجنازة . أما الأم فلم تستطع حضور الصلاة فى الكنيسة إذ صدمتها الفاجعة فخلت قدمها وشلت يديها وعقدت لسانها وتركتها جسدا هامدا لاقوة فيه ولا

قدرة على الحراك . فبقيت راقدة فى غرفتها المظلمة بالمنزل حتى وصل إلى أذنيها رنين الأجراس وهى تقرع نغمات الحزن فى وداع إبنتها . وسمعت خطوات المعزين فى أثناء خروجهم من الكنيسة ومرورهم بالمنزل ... فحاولت بكل ما ملكت من الجهد وحرارة الايمان أن ترفع يدهـا لترسم علامة الصليب على صدرها ولكن اليد لم تطاوعها .. وحاولت أيضا أن تحرك لسانها بكلمة وداع لابنتها ولكن اللسان عصاها وظل فى مكانه دون حراك

وكان المعزون بالكنيسة جمهورا كبيرا من الناس الذين يعرفون الاب إيجناتيوس ومن الغرباء الذين لا يعرفونه .. وجميعهم سواء فى الحزن على الفتاة الراحلة وفى التلهف على معرفة الحالة النفسية للاب من قسمات وجهه ونبرات صوته . لم يكن الرجل محبوبا لديهم لشدته وكبريائه وازدرائه بالخطاة وروحه القاسية التى لا تعرف الرحمة أو العفو وغيرته وجشعه الذى كان يدفعه إلى استغلال كل فرصة تعرض له لاقتناص المال من شعب كنيسته فكان الجميع يودون أن يشهدوا آلامه ويروا ذلة نفسه فى إحساسه بخطيئته المزدوجه لموت ابنته — قسوته كأب وفشله كقسيس — لم يستطع أن يحفظ إبنته — وهى لحمه ودمه — من الخطيئة والدنس

صوبت النظرات اليه من كل عين . . . وأحس هو بوطأتها على نفسه فحاول جهده أن يبقى منتصب القامة مرفوع الرأس وتحول اهتمامه من ابنته المتوفاة الى كرامته المستهدفة

« قسيس جامد » كلمة قالها الرجل كارزينوف وهو نجار بدين الاب بخمسة روبلات . ولكنها تناثرت كما تناثر كثير من أمثالها

على هذا الحال ذهب الاب ايجناتيوس الي المقبرة وعاد منها . . . جامد الوجه منتصب القامة . لم يعرف الانحناء الا عند باب مخدع زوجته . . وذلك لان الباب أقل ارتفاعا من قامته الفارعة . ولما دخل الغرفة أتبعه الانتقال المفاجيء من النور الى الظلام فلم يستطع أن يتبين وجه المرأة الا بعد كثير من الجهد . . . وهاله أن يرى الهدوء مرتسما عليه . . وحاول أن يري أثر الدموع فى العينين فلم ير فيهما الا الجفاف . . . أراد أن يستشف منهما الغضب أو الحزن أو أى دليل من دلائل الانفعال . . . ولكنهما كانتا هادئتين صامتتين لا تدلان على شيء ولا حراك بهما كالجسد المسجى على الفراش

وحاول أن يشق هذا الصمت بالحديث فقال « كيف حالك الآن ؟ »

ولكن الشفتين لم تنفرجا عن حرف والعينين لم تومئا باشارة . . . ولمس الاب جبينهـا بيده

جبينها الذى كان يتصبب بالعرق البارد . . . ولـكن المرأة لم تبد ما يدل على انها شعرت به . . . فلما رفع يده عنها سرت فى جسده قشعريرة قوية اذ رأى عينيها الزرقاوين العميقتين تحدقان النظر اليه من خلال الظلام . . ولـكنهما كانتا كما عهدهما لاول وهلة خاليتين من الحزن والغضب

وأدرك الاب انه لا يستطيع أن يحتمل هول الموقف فقال وهو يتجه نحو الباب « سأذهب الى غرفتى »

ومر فى طريقه بغرفة الاستقبال فرأى كل شىء فيها منتظما كما كان . . وخيل اليه ان المقاعد فى أغطيتها البيضاء ان هى الا جثث ملفوفة فى الا كفان . . . ولمح على احـدى النوافذ قفصا صغيرا مفتوح الباب

وصاح الاب فى صوت أجش « ناتاسيا » . وكأنما شعر بالخجل من نفسه لصوته الداوى فى المنزل السا كت بعـد ساعات من موت ابنته فأعاد النداء بصوت هادىء « ناتاسـيا . . . أين الـكنار ؟ »

« لقد ذهب »

« ولم تركتيه يذهب ؟ »

فبدأت العبرات تنهمر من عينى ناتاسيا ولـكنها كبحت نفسها ومسحت دموعها بطارف منديلها وقالت « انه كان روح السيدة الصغيرة . . أفيكون من الحق أن نبقيه بعد ان ذهبت هي ؟ »

فى تلك اللحظة خيل الى الاب حقاً ان الـكنار الاصفر الصغير فى مرحه الدائم وشـدوه الجميل كان فى الواقع روح فيرا . . . ولو لم يذهب لما كان ممكنا ان يقـال بأن فيرا قد ماتت . واحفظه هذا الخاطر الطارىء على الخادمة فصاح بها

« اغربي عنى . . . . يا حمقاء »

* * *

منذ ذلك اليوم الذى شيعت فيه الفتاة الى مقرها الاخير سـاد المنزل صمت عجيب . لم يكن سكونا لان السكوت هو انعدام الصوت ولـكنه كان صمتا . . . يحمل الى الرائى الاحساس بأن هناك شيئاً ما يمكن ان يقال ولـكنه لا يقال . . . وكلما خطر للاب اجناتيوس ان يزور مخـدع زوجته كان يقابل بتلك النظرة العنيدة الثقيلة التى كانت تنفذ الى صـدره وتـكاد تزهق منه الانفاس . . . وكذلك كان يشعر كلما بدا له أن يراجع القطع الموسيقية التى كانت تعزفها ابنته

أو يجيل النظر فى كتبها أو فى صورتها . . . صورتها التى استحضرتها معها من بيتر سبرج . كان للاب طريقة واحدة لا تتغير فى الفحص عن الصورة ... كان يبدأ أولا بالنظر الى وجنتها التى زاد من بهائها ووضوحها ما أسبغه المصور عليها من الضوء . ولشد ما كان يعجب حين كان يرى فيها ذلك الجرح الصغير الذى يذكر انه رآه على وجهها حين ماتت ولكنه لم يستطع ان يهتدى الى مصدره يومئذ . . . فى كل مرة أمتحن الصورة كان يراجع نفسه فى السبب المحتمل لحدوثه . . . فلو انه نشأ عن القطار لسحق الرأس كله ولما بقيت سليمة بعد الحادث كما وجدت . . . ولكن لعله حدث مصادفة من قدم بعض الناس عند اكتشاف الجثة أو من أظافر بعضهم عند حملها

فاذا أنهكه طول التفكير فى التفاصيل الخاصة بموت ابنته انتقل الى النظر فى عينيها . . كانت لها عينان سوداوان ذات أهداب طويلة تسبغ ظلالا عميقة تحتهما . . . فكان يبدو للرائى ان العينين محوطتان باطار أسود جميل . وقد جعل المصور الفنان لهما طابعا خاصاً . . . فكان الناظر اليهما يخال ان هناك حجابا . . . ستارا شفافا يفصل بينها وبين ما تحدقان اليه . . وليس يهم فى أى وضع كان الاب يضع الصورة . . . فان العينين كانتا تتبعانه دائما . . فى ذلك الصمت العجيب الذى كان فى الدقة والوضوح بحيث خيل اليه أنه يكاد يسمعه . . . وهكذا أخذ ذلك الخاطر — انه يسمع الصمت — يغزو خيال الاب

وفي كل صباح بعد الافطار كان الاب يتجه الى غرفة الاستقبال ويلقى نظرة سريعة عابرة على القفص الخالى والمقاعد المتناثرة . . . ثم يلقى بنفسه على أحدها ويغمض عينيه ويسبح فى خياله وهو مصغ الى ذلك الصمت العجيب الذى يسود المنزل . . كان كل شىء يبدو ساخرا . فالقفص كان صامتا وفى صمته كان يتجلى الاسى والدمع . . وكان يبين من خلالهما آثار مرح عدت عليه الايام فمحقته . وزوجته كانت صامتة . . ذلك الصمت المتصل العنيد الثقيل على النفس المروع الذى كان يهز جسد الاب بالقشعريرة حتى فى اشد الايام حرارة ودفئا . وابنته كانت صامتة . . صمتا يشبه القبر فى ابديته وبروده ويشبه الموت فى خفائه وغموضه بل لقد كان يخيل اليه احيانا ان الصمت ذاته يقاسى من هذه المحنة ويسعى الى الخلاص من نفسه ليكون حديثا . . فما يوفق لان شيئا قويا ثقيلا كان يجثم عليه ويبقيه كما هو . . صمتاً . . . صمتاً ابديا

وذات يوم تمتم الاب نفسه قائلا « ما اشد حماقتى » ثم انتزع نفسه من مقعده وانتصب واقفاً واتجه نحو النافذة ثم اخذ يحدق النظر الى الطريق المرصوف ثم الى المخزن المكشوف . وشد

ما عجب حين رأى سائقا واقفا بالباب . . . كان الرجل يبدو كتمثال من الخزف . . . كان من العسير على الاب ان يدرك لم وقف الرجل هناك . . فى ذلك المكان الذى تمضى الساعات دون ان يطرقه طارق من الناس

« * »

وكان عمل الأب إيجناتيوس يقتضيه أن يتحدث كثيرا خارج منزله ... فقد كان عليه أن يتفاهم مع زملائه الكهنة ومع أفراد الشعب ، وكان عليه أن يلقى الصلاة فى الكنيسة والعظات فى حفلات المساء ... ولكنه برغم هذا كان يشعر حين يعود إلى منزله انه ظل طول اليوم فى صمت.. أجل انه كان يتحدث كثيرا . . . ولكنه لم يكن يستطيع أن يتناول فى أحاديثه الموضوع الوحيد الذى يقتحم اهتمامه فى شدة وعنف ويشغل باله على الدوام .. وهو : لم ماتت فيرا ؟

لم يستطع الاب إيجناتيوس ان يدرك أن الاجابة على هذا السؤال فى حكم المستحيل . بل ظل على اعتقاده وامله فى الوصول إلى جواب يرضيه ويقنعه .. ثم جفاه المنام . . . فكان اذا خلا الى نفسه كل مساء ذكر تلك اللحظة التى وقف فيها مع زوجته الى فراش فيرا وهو يسألها منتهراً « اخبرينا مابك » فيخال أن ماوقع بعد ذلك انما هو حلم من الاحلام . ثم كان يغمض عينيه ويحاول أن يستعيد الى خياله ذكرى تلك الليلة بدقائقها وتفاصيلها فكان يرى كيف اعتدلت فيرا فى فراشها وكيف ابتسمت وكيف حاولت أن تقول شيئا فانحسرت الالفاظ من لسانها .. ماذا عساها كانت تود أن تقول . . هذه الكلمة التى لم يقدر لها أن تنطلق من شفتيها قط كان فيها الحل والشفاء. بل لقد خيل اليه أن هذه الكلمة قد انطلقت فى همس خافت ضعيف حتى لو أنه مال برأسه وأوقف دقات قلبه لسمعها .. ولكنها كانت فى الوقت ذاته بعيدة عنه . . . لا أمل فيها على الاطلاق .. وتمضى به الذكرى فينتفض فى فراشه ويعتدل فى جلسته ويمد يديه الى الفضاء ويهتف من أعماق قلبه « فيرا »

فلا يجيبه الا الصمت .. الصمت المطبق العميق

وذات مساء خطر له أن يدخل مخدع زوجته وكان قد مضى عليه اسبوع دون أن يراها فاتجه إلى رأس الفراش حتى لايقابل نظراتها الملحة الثقيلة .. وخاطبها قائلا « يأمى .. . أريد أن أتحدث اليك عن فيرا .. فهل تسمعين ؟ »

ولكن عينيها بقيتا فى صمت .. فرفع الاب صوته وتكلم فى قوة وحزم كما اعتاد أن يتكلم مع التائبين والمستغفرين

« انى أعلم انك تعدينني مسئولا عن موت فيرا .. ولكن سائلي نفسك : هل كان حبى لها أقل من حبك ؟ ان منطقك معوج سخيف . نعم كنت حازما معها .. ولكن هل منعها هذا الحزم من عمل ما كانت تريد ؟ لقد تنازلت عن كرامتى كأب وحنيت رأسى فى خضوع عندما تحدث لعنتى وسافرت . ومع ذلك أما ظللت تلحين عليها بالبقاء حتى أمرتك أنا بالسكوت ؟ هل كنت قاسيا عليها ؟ ألم اعظها دائما عن الله وعن التواضع والمحبة ؟

ثم أرسل الاب نظرة خاطفة سريعة الى عيني زوجته وتابع حديثه

« ماذا عساى كنت أفعل حين رفضت أن تكشف لنا عن حزنها ؟ . . الم آمرها ؟ . . . الم أرجها ؟ .. لعلك كنت تتوقعين منى ان اجثو على ركبتى امامها وابذل دموعى فى رجائها واستعطافها ؟ ثم كيف كنت استطيع الحدس بما كان يدور فى خلدها ؟.. الفتاة القاسية المجردة عن الشفقة والحنان ! »

ثم ضرب الاب ركبته بيديه وصرخ قائلا

« لم تكن تشعر بالحب لنا ... او على الأقل لى انا . الطاغية .. وربما كانت تحبك .. تحبك أنت .. لانك كنت تبذلين من دموعك أمامها وتهرقين من كرامة نفسك لها »

وانطلقت من الاب ضحكة عالية جوفاء ثم مضى يقول

« نعم .. لابد انها كانت تحبك .. وهاك الدليل على ذلك : تلك الميتة التى اختارتها لنفسها . انها عزاء جميل لك . ميتة قاسية فاضحة شائنة . ماتت فى التراب . فى الدنس . ككلب طريد رفسه صاحبه »

ثم استحال صوت الاب الى همس خافت اجش وهو يقول

« انى أشعر بالخجل : بالخجل عندما أسير فى الطريق . وعندما أقف على المذبح . وعندما أخلو بنفسى الى الله . الفتاة القاسية الجاحدة ملعونة هى فى قبرها الى يوم الدين »

ولما فرغ الاب من حديثه التى نظرته الخاطفة على زوجته ولكنها لم تكن فى وعيها .. وحين أفاقت كانت عيناها صامتتين وعبثا حاول الاب أن يستطلع منهما ما اذا كانت قد وعت ما قاله أم لم تعه

* * *

عند ما انتصف الليل — وكانت الليلة هادئة مقمرة والجو حاراً ساكناً — خرج الأب من غرفته وسار على أطراف أصابعه حتى لا تسمعه زوجته أو الممرضة وارتقى الدرج متجها الى غرفة فيرا . وكانت بالغرفة نافذة لم تفتح منذ موت الفتاة . فكان جوها جافا ساخنا .. وكانت روحها تدل على الهجرة والاهمال . وكان الناظر اليها يدرك لأول وهلة أنها ظلت غير مطروقة فترة ليست قصيرة من الزمن . ولما دخلها الاب أبصر شعاعا من ضوء القمر يسقط على النافذة وينفذ من خلالها فيضيىء أركانها بضوء خافت ضعيف يبدو منه الاثاث كالاشباح . وفي زاوية منها ظل الفراش الابيض الصغير كما كان منذ تركته صاحبته .. ولكنه بدا للاب في تلك اللحظة كأنما هو شبح أو خيال . واتجه الرجل الى النافذة ففتحها . . واقتحم الغرفة تيار قوى من الهواء النقى المشبع برائحة النهر القريب وشذى الازهار المتفتحة وحمل معه أصوات خافتة لاناس يصخبون وينشدون من بعيد

وخلع الاب حذاءه ثم اتجه إلى الفراش الخالي وسقط على الوسادة يحتضنها . . في تلك القطعة منها حيث كانت فيرا تسند رأسها . ولم يدر الرجل كم من الوقت مضى وهو على هذه الحال ولكن الاصوات الصاخبة التي كان الهواء يحملها الى أذنيه هدأت ثم سكنت وتلاشت . . وهو لا يزال را كعا كما كان وشعره الاسود الطويل متناثر فوق كتفيه وعلى الفراش

وتحرك القمر حتى اختفى وبدت الغرفة فى ظلام دامس فرفع الاب رأسه وتمتم بصوت تجلى فيه حبه المكبوت لابنته المتوفاة

« فيرا يابنيتي ! . . أتدركين مقامك عندى ومنزلتك لدي يا أبنتي ؟ . يا ابنتي الصغيرة . . . يا قلبي . . يا دمي . . ياحياتي ! . ان أباك . . أباك العجوز الضعيف الذي وهنت قواه . . »

وعرت جسد الرجل رعدة قوية وقد اقتحمته ثورة العاطفة ولكنه ملك زمام نفسه وعاد يتمتم فى رفق وحنان

« ان أباك العجوز يتوسل اليك . . انه يبكى بالدمع كما لم يفعل من قبل قط ! . . ان أحزانك يابنيتي الصغيرة وآلامك هي أيضا أحزاني وآلامي »

وهز الرجل رأسه ثم تابع حديثه

« نعم يافيرا . . . ما الموت لرجل عجوز مثلي ؟ ولكن أنت الفتاة الرقيقة الضعيفة الوجلة ؟ . أتذكرين يوم جرحت أصبعك وسالت منه الدماء . . لقد بكيت يومئذ يابنيتي . . انني أعلم أنك

تحييني . . لا ريب فى هذا . وكنت تقبلين يدي كل صباح . فهلا صارحتنى . أى ألم يعذب رأسك الصغير . وأنا – بيدى هذه – أزيله وأمحوه . انها لا تزال قوية . هذه اليد يا فيرا . لا تزال قوية»

واهتز شعر الاب ايجناتيوس وهو يقول « أخبرينى »

ثم اتجه ببصره الى الجدران وهو لا يزال يتمتم « أخبرينى »

وساد الغرفة صمت عميق لم يعكره الا صوت عربة تتحرك من بعيد

وبدت من الاب نظرة فزعة كأنما خيل اليه أنه يري الجثة الممزقة المشوهة . ثم رفع نفسه واستوى على قدميه واتجه نحو الباب وهو يتمتم فى همس كسير « أخبرينى »

ولكنه لم يلق جوابا على هذا الاستعطاف المتكرر غير الصمت

* * *

فى اليوم التالى بكر الاب ايجناتيوس فى تناول فطوره منفردا ثم ذهب الى المقبرة للمرة الاولى بعد وفاة ابنته . كان المكان حارا هادئا وقد خيل للاب انه يستطيع أن يلزم عادته القديمة فانتصب بقامته وعلت وجهه تلك الهيئة الجامدة التى كان الناس يعهدونها عليه من قبل . ولعله حاول أن يخدع نفسه عن ظاهرتين جديدتين لا سبيل الى الانخداع فيهما – ضعف ساقيه وشيب لحيته . وكانت المقبرة يؤدى اليها طريق طويل مستقيم ذو ميل قليل الى أعلى فى نهايته باب بدا كأنه فم مفتوح ومتأهب دائما للاطباق على كل ما يجيىء اليه

وكان قبر فيرا فى نهاية المقبرة . فكان على الاب ايجناتيوس أن يجتاز اليه طرقا ضيقة معوجة بدت عليها آثار النسيان والاهمال وتناثرت على جوانبها المقابر القديمة بأسوارها المتكسرة وأحجارها الضخمة التى ظهرت عليها علامات البلى والتآكل . كان القبر محاطا بأرض يغطيها العشب والكلأ . وكانت أشجار البندق وفروعها الممتدة على جوانبه تكاد تغطيه بأوراقها الغزيرة . وجلس الاب على حجر قريب وهو يكاد يمسك أنفاسه ثم أخذ يجول بنظراته خلال المكان ويلقى بين الحين والآخر نظرة عابرة على السماء الصافية الساكنة . فامتلأت نفسه بذلك السكون العميق الذى يسود المقابر حين يهدأ الجو ويسكن الهواء ولا يسمع فيها شيء حتي حفيف أوراق الاشجار . ثم بدا للاب ايجناتيوس ان هذا ليس سكونا ولكنه صمت . صمت عميق يستقر فى كل حجر من أحجار المقبرة وينتقل منها الى كل مكان فى المدينة وينتهى فى آخر الامر الي هاتين العينين الصامتتين فى ثبات وعناد

سرت فى جسد الاب قشعريرة باردة وهو يتجه بنظره الى قبر فيرا وأخذ يحملق فى الحشائش المتناثرة حوله وهو لايكاد يصدق أن تحت هذه الحشائش - وعلى بعد أقدام قليلة منه - ترقد ابنته . وخيل اليه أن هـذا القرب مستحيل ولـكنه مع ذلك أثار فى نفسه الالم والارتباك . لقد اعتاد حين كان يفكر فى فيرا أن يراها شبحا اختفى الى الابد فى أعماق الابدية . . . ولـكنها الآ ن - فى هذه اللحظة - كانت قريبة منه ... قريبة جدا . وان كانت قد ذهبت الى غير عودة . بل لقد طاف بخياله انه لو نطق بـكلمة واحدة كانت تداعب شفتيه . . . أو لو قام بحركة صغيرة لخرجت فيرا من قبرها وبدت فى كامل فتنتها وسحرها ... ولخرج معها أيضا كل الموتى بعد طول الهجوع فى هذا الصمت الموحش الطويل

خلع الاب ايجناتيوس قبعته السوداء وداعب شعره باصابعه وهو يهمس قائلا « فيرا »

واهتز جسد الاب كأنما كان يخشى أن يسمعه عابر غريب وقام من مكانه وهو يحملق فى الفضاء حوله ... فلم ير أحداً هناك . وكأنما أمدته الوحدة بشجاعته الذاهبة فاعاد النداء بصوت عالٍ هذه المرة قائلا « فيرا »

كان الصوت صوت رجل عجوز ... صوت حاد آمر . وبدا من الغريب أن يظهر هذه الرغبة القوية ثم لايجاب اليها

« فيرا »

وارتفع الصوت فى عناد ولما تلاشت آخر نغماته فى سكون الليل خيل اليه - للحظة خاطفة - انه سمع الجواب متقطعا يأتيه من تحت صخور المقبرة فاسرع بازاحة الشعر عن أذنه ومال بها على الصخرة الخشنة وهو يرهف السمع ويقول متوسلا « أخبرينى يافيرا »

وسرت فى جسد الاب قشعريرة أخرى وهو يحس شيئا باردا يتسرب من القبر الى أذنه . وخيل اليه أنه يسمع فيرا تتكلم ... تتكلم لـكن دون أن تعـكر هذا الصمت المطبق المحيط به . واستبد به هذا الاحساس حتى انه حين استطاع فى آخر الامر أن يتحرك من مكانه كان شاحب الوجه كالموتى . وفى تلك اللحظة خيل اليه أن هذا الجو المحيط به يهتز كله من صمت مدوٍ وأن هذا الصمت يكاد يخنقه ويزهق أنفاسه . كان يشعر بشىء يسرى فى جسده ويطبق على صدره ويهزه من قمة الرأس الى اخمص القدم . ولم يعد فى استطاعته أن يحتمل هذا الرعب المفاجىء فاجال حوله نظرات حادة خاطفة وقام من مكانه متباطئا وهو يحاول بكل مايملك من جهد أن ينصب قامته وأن يسبغ على جسده المهتز شيئا من كبرياء الوقار . وقد أفلح فى هذا . ثم نفض عن ملابسه غبار المكان

ووضع قبعته على رأسه ورسم على القبر علامة الصليب ثلاث مرات وسار فى طريقه بخطوات متزنة ثابتة وهو لايكاد يعرف الطريق الذى يسير فيه

ووقف الاب عند مفترق طريقين وركبت شفتيه ابتسامة خافتة وهو يحدث نفسه قائلا « أيجوز أن أكون قد ضللت الطريق »

ولكنه لم يتردد إلا برهة قصيرة ثم عرج بدون تفكير الى اليسار لانه شعر باستحالة الوقوف والانتظار . فقد لاحقه هذا الصمت القاتل الذى خيل اليه أنه يملأ المقبرة . . . ينبعث من القبور ويصدر من كل مسام الارض ممتلئا برائحة الموت ومشبعاً بجثث الموتى . أسرع فى خطواته وهو يكاد يترنح . ثم أخذ يعدو قافزاً من فوق القبور ومصطدما بالاحجار والصخور وكاد يتعثر اكثر من مرة لولا استعانته بفروع الاشجار واستناده بين الحين والحين الى الجدران . . . كان كل مايملأ ذهنه فى تلك اللحظة هو الهرب فاخذ يجري من مكان الى مكان ثم أطلق ساقيه للريح وقد تهرج رداؤه الطويل وتناثر شعره فى الهواء . ولو أن جثة من الجثث قامت من قبرها لما استطاعت أن تفزع رائيها بمثل ماكان يفزعه رؤية هذا الرجل وهو يعدو ويهرج ويشيح بذراعيه . وقد شوه الرعب وجهه وبدا عليه الجنون وترددت من فمه المفتوح لهثات خشنة جوفاء

وفى النهاية وصل الاب الى طريق ضيق بدت فى نهايته الكنيسة الصغيرة الملحقة بفناء المقبرة وعلى مقعد الى جوارها جلس رجل عجوز عابر سبيل فى أرجح الظن وبجانبه اشتبكت امرأتان من المتسولات فى عراك اختلط فيه السباب القذر بالاقسام المغلظة

ولما وصل الاب اجناتيوس الى بيته كان الغسق . وكان مخدع زوجته اولجا ستيبانوفنا يبدو مضاء فلم ينتظرحتى يخلع ملابسه أو ينزع قبعته أو يمحو عنها آثار الغبار بل اتجه نحوها مباشرة وركع بجانبها وهو يقول من خلال عبراته

« يا أماه . يا اولجا . ارحميني واشفقي على . سأصاب بالجنون لاريب »

ثم اعتمد برأسه بين يديه وأخذت العبرات تسيل من عينيه فى حرقة وحرارة كأنما كان يبكى للمرة الاولى فى حياته . ومضت عليه فى ذلك فترة غير قصيرة ثم رفع رأسه وهو يشعر فى يقين واطمئنان أن المعجزة ستتم وأن زوجته ستتحدث عاطفة حانية عليه

بهذا الامل سحب جسده الضخم نحو زوجته وقابل نظرة عينيها الزرقاوين . ولكنهما كانتا كما عهدهما دائما خاليتين من الحنان أو الغضب . مليئتين بالسكون والصمت

ذلك الصمت الذى كان يخيم على الحياة فى هذا البيت الكبير المهجور

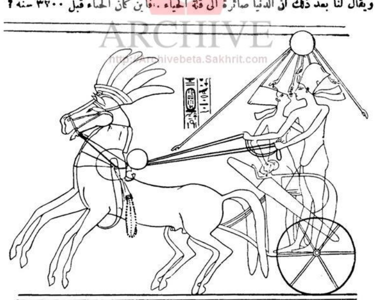
القبلة على العربة

لا جديد تحت الشمس

قل أن نصدق هذه الكلمة إلا فى حالات نادرة . ومن هذه الحالات هذه الصورة التى يراه القارئ هنا . فان اخناتون فرعون مصر المجدد الذى تولى العرش حوالي سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد قد وقف فى العربة الملوكية يقبل زوجته . أو هي التى التفتت اليه فى تكاف الحركة وتلهف الرغبة تطلب قبلته

وهذه القبلة العلنية الصريحة لايحسب فيها حساب للعرف أو الوقار أو الحياء . وفى مصر هذه الايام من ينادي بضيعة الاخلاق وميوعة الشباب والاستهتار العام لأن فتى يرافق فتاة فى الاتومبيل ولو أن أحد الشرطة فى زماننا رأى زوجا وهو يقبل زوجته والعربة سائرة بهما فى أحد شوارع القاهرة لما تركهما بغير تحقيق

ويقال لنا بعد ذلك ان الدنيا صائرة الى قلة الحياء . فأين كان الحياء قبل ٣٢٠٠ سنة ؟



اخناتون يقبل زوجته على العربة

فى الحياة والعمل

مرآة شهرية لضروب النشاط الاجتماعى والاقتصادى والثقافى

وزارة المعارف

ذكرت الصحف أن وزارة المعارف تستعد للاحتفال بعيدها المئوى وهذا يدل على أنها قد مضى عليها نحو مائة سنة وهى تشرف على توجيه الثقافة العامة والتعليم الفنى فى مصر سواء أ كانت وزارة أم نظارة أم هيئة أخرى، أقل وجاهة وفخامة

وجدير بالوزارة بعد هذه المائة من السنين أن تحاسب نفسها على هذه الخدمة التى خدمتها البلاد وهل هى ملائمة للتطور الاجتماعى أو التطور الاقتصادى . وحسبها أن تنظر إلى عشرات الألوف من المتعلمين العاطلين الذين وثق آباؤهم — لسوء حظهم — بتعليم وزارة المعارف وظنوا أن هذا التعليم سيفتح لهم أبواب العمل فاذا بهم بعد أن نالوا شهادات الوزارة يرون أنفسهم متسكعين، فى الشوارع لا يطلبهم أحد للعمل ولا يعتقد أحد أن ثقافتهم لها قيمة عملية تكفى صاحبها لأن يكسب عيشه . بل عليها أن تذكر أيضا ٨٥ فى المائة لا يقرأون

والواقع أن وزارة المعارف هى أبعد الوزارات عن التطور ولسنا نقول ذلك فى نقد الوزير الحاضر أو كبار موظفيها القائمين بالعمل فيها الآن . فان هؤلاء قد ورثوا ميراثا سيئاً يحتاج إلى العلاج الطويل وإذا كانوا يلامون فانما ذلك لأنهم لم يشرعوا إلى الآن فى التغيير والتبديل

وماذا يمكن الوزارة أن تقوله فى عيدها المئوى إزاء هؤلاء الألوف من المتعلمين العاطلين ؟ وماذا تقول إزاء هذه البدعة المضحكة المبكية وهى المجمع اللغوى الذى يكلفنا مبلغاً يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر الف جنيه كل عام لكى يخرج لنا بكلمات ودعايات وآراء تؤخر التطور العام للأمة وتردها إلى الوراء وإلى الآراء الشرقية العتيقة التى لم يحقق أى ارتقاء إلا بمقدار التخلص منها ؟ وماذا تقول إزاء التعليم الالزامى الذى لا يعلم أحداً ولا يعد شابا لأن يكسب عيشه ؟ وماذا تقول إزاء الصناعات والحرف العديدة التى يعرفها أبناء الأجانب النازلين بيننا ولا يعرفها أبناؤنا ؟

لقد قيل ان فى العالم أربعة آلاف حرفة وصناعة يعيش منها المتمدنون فكم عندنا منها ؟ وهل

لو كانت عندنا هذه الحرف والصناعات ولو كان آباؤنا قد تعلموها — هل كان عدد المتعلمين العاطلين يبلغ مبلغه الحاضر ؟

ها كم خبراً صغيراً يارجال الوزارة

إن المجلس البلدى فى لندن يتولى التعليم فى هذه المدينة . وهو يعلم فى مدارسه ثلثمائة مادة يمكن التلاميذ أن يعيشوا ويكسبوا باحترافها . وهذه المواد تختلف من صناعات المنزل إلى العمل فى المصانع الكبرى . وكل هذا يجري بما يوافق البيئة الزمانية والمكانية . ويجرى فى تطور لا ينقطع إذ ليس هناك برنامج ثابت . ففى شارع فليت حيث الجرائد الكبرى أنشئت مدرسة لتعليم الشبان الحفر على الزنك والحجر أى الزنكوغراف والليثوغراف . وفى مصر يمارس هذه الصناعة أرمن . وهى صناعة سهلة ويمكن الشبان المصريين أن يتعلموها . فهل فكرت فيها الوزارة ؟

ان الدنيا الجديدة فى حاجة إلى ثقافة جديدة ووزارة المعارف تمارس ثقافة قديمة يتعلمها أبناؤنا ويخرجون بها آملين أن يعملوا بها ويكسبوا منها العيش الشريف ولكنهم يلاقون العطل والجوع والحرمان

ووزارة المعارف هى المسئولة عن كل ذلك . فاذا تقول فى عيدها المئوى عن هذا الموضوع

الفاشية والنازية

أعظم ما تشابه به النازية الألمانية الفاشية الايطالية هو الاشتراك فى الباعث أو الأصل وهو مكافحة الدعاية الشيوعية · فلو لم تكن هذه الدعاية فى ايطاليا وألمانيا لما كان النظام القائم فيهما الى الآن . وقد اعتبر كل من موسولينى وهتلر هذه الدعاية كالنتيجة المحتومة لآراء الحريين والديمقراطيين فحمل كلاهما على هذه الآراء . ولذلك يشتركان فى كراهة النظم البرلمانية التى جعلت الخطباء يجتذبون العامة ويستطيعون توجيهها نحو الثورة الشيوعية . وفى كلا النظامين نجد ان النقابة المؤلفة من العمال وأرباب العمل تأخذ المقام الأول فى تنظيم الصناعات

ويشترك الفاشيون والنازيون فى تقييد الحرية أى حرية السعى والكسب بل حرية الخطابة والكتابة بحيث لا تتجاوز هذه الحرية مصلحة الدولة أو ان مصلحة الدولة هى الاعتبار الاول فى هذه الحرية . وكلاهما يجيز امتلاك العقار ولكن فى حدود هذه المصلحة . فان مالك العقار فى ألمانيا أو ايطاليا يستطيع التصرف به ولكن مع قيود ثقيلة سواء فى هذا التصرف نفسه أم فى

الضرائب التي يجب أن يؤديها والانتاج الذي يجب أن يخضع فيه لمصلحة الدولة . ومن هنا ماقيل من وجه التشابه بين النظام القائم فى ألمانيا وايطاليا وبين النظام القائم فى روسيا فان مالك العقار فى النازية والفاشية ليس حرا كل الحرية كما هو فى انجلترا أو فرنسا اذ عليه قيود كثيرة ولكن الامتلاك الفردى لم يلغ

هذه هى وجوه الشبه بين ايطاليا وألمانيا . ولكن هناك وجوها أخرى للاختلاف بينهما . وربما كان أبرزها ان مركز الفاشية الايطالية ومحورها ومفتاحها هو الدولة . ولكن محور النازية أى الوطنية الاشتراكية هو السلالة أو الدم الالمانى . ومن هنا هذا العداء لليهود فى ألمانيا فى حين تخلو الفاشية الايطالية منه

ثم ان النازية الالمانية لاعتمادها على هذا الاساس السلالى لا تؤمن بالتوسع الامبراطوري لأن هذا التوسع سيعنى فى النهاية اختلاط السلالة الالمانية بالدم الأجنبي فى حين تعتمد الفاشية الايطالية على التوسع الامبراطورى لخلوها من هذا الغرض . واذا كانت ألمانيا تطلب المستعمرات فليس ذلك إلا لأنها تطلب المواد الخامة لا أكثر

ولهذا السبب نفسه نجد فى ألمانيا معنى صوفيا للأرض الالمانية . فان النازيين لحدة وطنيتهم يطابقون بين الارض الالمانية وبين السلالة الالمانية ومن هنا تجديدهم للزراعة والعناية الكبرى بتأسيس العزب وحمايتها من البيع الجبرى بل حمايتها من التجزؤ بقصر الميراث على الابن الاكبر للاسرة

والمستوى الثقافى العام فى ألمانيا أرقى بكثير منه فى ايطاليا . ولذلك كان الرقى فى النازية أسرع منه فى الفاشية بل هو سيكون أيضا أسرع فى المستقبل حين يخطو هتلر خطوات واسعة نحو تحقيق الاشتراكية

المستر نورمن توماس

نورمن توماس زعيم الحزب الاشتراكى فى الولايات المتحدة ومرشحه لرياسة الجمهورية فى الانتخاب المقبل وهو من أصحاب الادمغة الكبيرة ومن المعتدلين فى زعامة حزب اشتهر بالتطرف ولا بدع فى اعتداله لانه كان قسيسا بروتستانتيا قبل أن ألقيت اليه مقاليد الزعامة

وسئل المستر توماس عما يفعله لو قدر له وانتخب رئيسا فقال:

« ان الخطوة الاولى التى أقدم عليها هى تجنيد البلاد بجملتها — كما فى وقت الحرب — لمكافحة البطالة على خطط اشتراكية لا تكون مباينة للقبول من دستور البلاد ، فاذا خالفته من بعض الوجوه وجب تنقيحه على ما يلائم مصلحة الشعب . وهذا يعنى انهاء سيطرة محكمة الولايات المتحدة العليا

لأنها فى كثير من أحكامها جائرة مضادة لروح العصر ويعنى أيضا منح الحكومة حق الاستيلاء على مرافق الاعمال العظيمة كلها واستخدامها

« ثم استولى على المناجم والمعادن والسكك الحديدية وعلى مولدات القوة وغيرها من المشاريع الاساسية الضرورية لمجموع الشعب والتى يجب أن تنتفع الأمة كلها بنتاجها لا افراد قلائل هم الذين استأثروا بخيراتها كل هذا الزمان فكانوا السادة وبقية الشعب فى جملة العبيد . واثابر على اعانة العاطلين والفقراء وعلى متابعة الاعمال النافعة التى بدأتها الحكومة الحالية وهى آخذة بها فوجدت بذلك اعمالا لمئات الالوف على حسابها . وتكون أهم وزارات الحكومة نظارة تدبير أعمال لمن لاعمل لهم وضمان لحاجات المعمرين منهم . وتكون الاموال التى تنفق فى هذا السبيل مجموعة من ضرائب يفرض اثقلها على الدخل الكبير

« ونقفى بجعل الكثير من تطبيب مرض الناس خاصا بالحكومة والتهذيب فى المدارس العالية مجانيا لغير القادرين على اداء بدله . ونجعل ساعات العمل فى الاسبوع ثلاثين ساعة . وفى الزراعة ننظم طريقة اشتراكية فى الزرع والجمع والتصريف على صورة تعاونية تشرف الحكومة عليها بتدقيق فتعدل الاسعار بحسب الظروف وتمد الفلاحين المحتاجين بالمال وتنشىء وكالة تعوض على الفلاح مايخسره من عطل المواسم أو النكبات الطبيعية

« ومما لاحاجة الى ايضاحه هو الغاء كل القوانين التى تحول فى بعض الأحيان دون حرية الكتابة والخطابة . حرية الجرائد وعقد الاجتماعات السياسية . والقوانين التى تقاوم مساعى العمال للحصول على حقوقهم وما يرتأونه من التنظيم والاشتراع الضروري لكيانهم والضامن لهنائهم . وبما أننا نؤمن بالسلم ونناهض الحروب فاننا نخفض التسليح الى ادنى معدل ممكن الى أن يجىء الوقت المساعد على اطراح السلاح بالكلية ونمهد لذلك بالغاء المدارس العسكرية »

وقال فى عرض حديثه ان الاشتراكية تختلف عن الشيوعية فى أهم الوسائل والنظم التى يعتمد عليها فى تحسين حالة المجتمع . فالشيوعية تبغى تقييد الحرية الشخصية وحرية الكتابة والخطابة والدين أما الاشتراكية فتؤيدها جميعا . والشيوعية والاشتراكية على اتفاق فى مقاومة الرأسمالية وتسعيان لابتداع طريقة أخرى يكون بها الانتاج للاستعمال العام وليس للربح الشخصى

فالاشتراكية تحاول أحداث هذا التغيير بوسائل سلمية قانونية . أما الشيوعية فتقول ان التغيير لايمكن ولا يتم بدون سيطرة مطلقة آمرة ناهية . وأن هذه السيطرة لاتتأتى الا عن طريق الثورة . ونحن فى هذه البلاد نكره السيطرة ولا نرغب فى ثورة لان هنالك وسائل شتى نتمكن بها من استئصال المساوىء الحكومية والاجتماعية بالاقتراع العام وذلك عندما ندرك أكثرية الشعب

ان فئة قليلة منها قد اغتصبته حقوقه واستأثرت بخيرات البلاد ومقدراتها الى حد أصبحت عنده الآمرة الناهية حتى على الحكومة

المسلمون فى بلغاريا

كنا نعلم أن فى الأزهر طالبا بلغاريا يتلقى علومه فى كلية الشريعة هو الاستاذ اسماعيل حتى وقد أوشك أن يتم دراسته ويعود الى بلاده فلما تلقى المسئولون فى الأزهر خبر وصول بعثة بلغارية رأينا أن نتصل بها ونتعرف منها شيئا جديدا عن اخواننا المسلمين فى البلغار

وقد ذهب مندوبنا بعد ظهر أمس الى شارع الأزهر حيث تكية محمد بك أبو الذهب وكتب يقول : ذهبت الى عمارة ضخمة تضم عددا كبيرا من الأتراك والاكراد والالبانيين والبلغاريين والتتار وهذه العمارة تابعة لرواق الأتراك بالأزهر وفيها الكثير من الغرف يقيم كل اثنين أو ثلاثة من الطلبة فى إحداها ، وفى إحدي هذه الغرف تقدم بى أحد العلماء من الأتراك الذين أقاموا فى مصر مدة فاذا بثلاثة من الشبان تلمح فى وجوههم النجابة ويدل مظهرهم على الصحة والنشاط وهم محرم عبدالله افندى نجل المفتى الأكبر للمسلمين فى بلغاريا وعثمان سيف الله افندى واحمد حسن افندي وقد علمت من محدثى التركى أنهم من العائلات العريقة من المسلمين

سلمت عليهم وهنأتهم بسلامة الوصول الى مصر فتقبلوا هذه التهنئة بسرور ولما علموا أننى أريد أن أتحدث معهم عن شئون المسلمين فى بلغاريا أظهروا ارتياحا وان كنت قدشعرت منهم بشىء من الخجل وذلك بسبب عدم تمكنهم من التعبير عن آرائهم باللغة العربية كما يجب ولذا كانت أسئلتى مختصرة وكانت أجوبتهم على قدر هذه الأسئلة وكان يجيب على اسئلتى عثمان سيف الله افندى

سألت حضرته كيف رأيتم مصر قال : بلدة جميلة ونحن مسرورون منها كثيرا قلت وأى المعاهد تود أن تتلقى فيها دروسك قال : اننا جميعا نحب أن نلتحق بكلية الشريعة ولكننا لا ندري ماذا يكون وهل سنتمكن من دخولها ثلاثتنا أم لا فتمنيت له تحقيق هذه الامنية ثم وجهت اليه هذه الاسئله ·

س — كم عدد المسلمين الموجودين الآن فى بلغاريا ؟

ج — يبلغ عدد المسلمين الموجودين فى بلغاريا حوالى ٧٥٠٠٠٠ نسمة من مجموع السكان البالغ خمسة ملايين منهم ٨٦٠٠٠٠ من الاتراك والباقون من البلغاريين ويسمون البدماك

س — ماهو نصيب المذاهب الاربعة بين مسلمى بلغاريا

ج — كل المسلمين هناك أحناف

س — ماهى نسبة المتعلمين عندكم

ج — نسبة المتعلمين حوالى ٧٥ فى المائة ولكن الجيل الحديث من الشبان يبلغ حوالى ٩٥ فى المائة

س — هل حضوركم لمصر لحساب أنفسكم أم لحساب الحكومة البلغارية

ج — نحن حضرنا هنا من قبل جمعية الدفاع عن الاسلام وهى جمعية خيرية كبرى للتعليم ومن قبل مفتى الاسلام مع رعاية الحكومة ومساعدتها

س — من هو الرئيس الاعلى للمسلمين فى بلغاريا وما هو نظامهم

ج يعتبر المفتى هو الرئيس ومعه أشخاص يستعين بهم ومقره « صوفيا » العاصمة ويوجد فى كل بلدة محكمة شرعية تنظر فى شئون المسلمين من نكاح وطلاق وميراث وغير ذلك أما ما عدا هذا فالمسلمون كغيرهم يقضون مشاكلهم أمام المحاكم الاهلية

س — هل يوجد هناك مجلس نيابى وما عدد المسلمين الموجودين

ج — يوجد مجلس « المبعوثان » ولكنه منذ عامين معطل وكان النواب المسلمون فيه حوالى عشرة أشخاص

ولما أردت أن أعرف منه سبب التعطيل ابتسم وقال معطل أو لم يعطل عندكم أربع سنوات وقد دهشت لهذا الجواب الذى يدل على معرفة واطلاع

س — هل يوجد موظفون كبار من المسلمين عندكم

ج — لا . والسبب فى ذلك أن التعليم بين المسلمين لم ينتشر الا حديثا

س — بماذا يعنى المسلمون هناك من الاعمال

ج — يعنون كثيرا بالزراعة والتجارة وهم يعتمدون على أنفسهم وحالتهم تكاد تكون حسنة من الوجهة المادية

س — هل توجد طوائف دينية كثيرة

ج — يوجد من اليهود حوالى أربعين ألفا ومثلهم من بقية الطوائف الأخرى والباقى من المسلمين

س — وما هو موقف الحكومة منكم ومن هذه الطوائف

ج — الحكومة عندنا تعدل بين الطوائف ولكل طائفة تمام الحرية فى شعائرها وعبادتها وكلنا راضون عنها مطمئنون اليها

س — هل توجد بعثات اسلامية من بلغاريا فى غير مصر ولماذا فضلتم مصر فى بعثتكم

ج — كنا من قبل نذهب الاستانة ولكننا الآن جئنا لمصر لأننا نعتبر الأزهر هو أكبر جامعة دينية فى الشرق

وهنا رأيت أننى قد أخذت زمنا كبيرا من وقتهم فشكرتهم على هذه المعلومات واستأذنت منهم بعد أن وعدت ببحث واف فى فرصة أخرى

التعليم فى الهواء الطلق

إن النشاط العقلى والجسمى للانسان فى الحياة الخارجية فى الهواء الطلق أكثر منه داخل الفصول بين جدران أربعة ، فقد ألف الانسان جو الطبيعة منذ ظهوره فى هذا العالم ، وجسمه لا يتحمل البقاء محبوسا فى الداخل ، وهذا حق ، وبخاصة فى الطفولة فى الأدوار الأولى للتكون والنمو ، فالطفل الصغير يجب أن يقضى كل دقيقة ممكنة فى الهواء ، فى الحدائق وغيرها . وليس معنى ذلك أن نحرمه التعلم ، بل نعلمه فى بيئة صحية ، فتفيده صحة وقوة وملاحظة وعقلا ، والاطفال جبلوا بطبيعتهم على حب الطبيعة والمعيشة فى الهواء والخلاء . وإن حبهم للمكث فى الخارج حب غريزي الغرض منه المحافظة على النفس والنوع

هـذا وإن النشاط الكبير الذى يظهره الاطفال وهم فى عالم الطبيعة — كالحدائق مثلا — سبب واضح يدعو إلى القيام بالدراسة فى خارج الفصول بقدر الاستطاعة . ويستفيد التلاميذ من التعلم فى الهواء أكثر من استفادتهم فى الفصول المدرسية . وبخاصة حينما يألفون هذا النوع من الدراسة . ولقد برهنت القواعد الصحية الحديثة على أن المكث طويلا بين أربعة جدران غير صحى فالأوبئة والأمراض المنتشرة نتيجة طول المكث فى داخل المنازل أو الحجرات . وعلى المدرس أن يذكر أن أكثر الامراض انتشارا فى المدارس الانجليزية والامريكية مرض التدرن الناشىء عن كثرة المكث فى الداخل فى حجر فاسدة الهواء

فاذا كان للتربيـة فى دور الطفولة تأثير قوى فى الاطفال طول حياتهم فمن الواجب أن نشجع فيهم ذلك الحب الطبيعى للمكث فى الهواء ، ونجتهد فى تجديد ذلك الشغف بالمكث فى الخـلاء ، ونفعل كل مافى استطاعتنا من قوة لترغيبهم فى المعيشة الصحية ، والعمل على أن يجـدوا مسراتهم فى الطبيعة ، وأن يكسبوا العلم والصحة فى وقت واحد

ولقد برهنت مئات من التجاريب فى مدارس الهواء الطلق على أن ضعفاء الأجسام من الأطفال يتعلمون بسرعة عظيمة ، وتزيد قوتهم حينما يسمح لهم بالتعلم فى الهواء الطلق .

يقول أحد الأساتذة فى إحدى الجامعات الاوربية إنه لم يستطع المحافظة على صحة ابنه إلا بوسيلة

واحدة هي الاصرار دائما على أن يلعب في الخارج طول النهار في يومي السبت والاحد من كل أسبوع فان هـذا الطفل كان يأتي إلى المنزل يوم الجمعة بعد انقضاء الاسبوع الدراسي وهو متعب منهوك القوى . وباللعب والراحة يومي السبت والاحد في الهواء كانت قواه تتجدد في أيام الاثنين ويكثر نشاطه وتزيد حيويته . وفي أيام العطلة والاجازة كانت صحته تتحسن كثيراً من الرياضة في الحدائق وتغيير الهواء في المصايف . فمثل هذا الطفل سعيد الحظ بأبيه . أما غيره من الاطفال فقد لا يجدون هذه العناية والملاحظة والعمل على تحسين صحتهم وتجديد قواهم . فالطفل العادي قد يكون تأخره في الاعمال المدرسية ناشئا عن الاجهاد المستمر مع إهمال الرياضة واللعب وتقوية الصحة والاستفادة من الهواء والشمس . وبالاختبار قد شوهد أنه يمكن تحسين كثيرين من الاطفال صحياً إن لعبوا ومكثوا وقتاً طويلا كافياً في الهواء الطلق

والتعليم في الهواء الطلق خطوة كبيرة نحو الطريق المؤدي إلى تقوية أجسام الاطفال عموما والضعفاء منهم خصوصاً . وإذا كان الهواء خير علاج لكثير من امراض الاطفال وغيرهم فلماذا لا يكون خير واق منها ؟ ولماذا لا يكون الهواء أحسن مقوّ لمن يحتاج إلى القوة والنمو ؟

روسيا والشيوعية ومصر

في البحر الابيض المتوسط على إحدى البواخر اليونانية شاب مصري يدعى عبد الرحمن فضل حرم من الرعوية المصرية بتهمة الشيوعية . فرفضت السلطات المصرية أن تقبله في الاسكندرية ورفضت كذلك السلطات اليونانية — وهي الآن ديكتاتورية — أن تقبله في بيرية . فالرجل يروح ويجيء كل أسبوع بين مصر واليونان ويأكل ويشرب بما يتصدق عليه به ربان الباخرة اليوناني

ولو أن أحد القصصيين الخياليين ألف قصة خيالية وجعل بطلها مثل عبد الرحمن فضل يروح ويجيء بين ميناءين ووطنه يرفض نزوله فيه لما صدق القراء مثل هذه القصة لأنها تتجاوز حدود الخيال المعقول

ولكن هـذا هو الواقع الآن . وهو واقع يخجلنا جميعا .. فان الشيوعية تعد من الجنايات التي يعاقب عليها في بعض الأقطار — مثل هنغاريا — بالاعدام . ومع أن هذه العقوبة قاسية جدا ولكنها معقولة بل هي أيضا مع قسوتها عادلة . وذلك لأن أبناء الامة يستوون فيها ولا يحكم على واحد منهم بها إلا بعد محاكمة ينظرها قضاة تمرنوا على التحقيق وسمعوا أقوال المحامين عن المتهم ولهذا المتهم الحق في تقديم البينات والشهود . ثم له الحق في كسر الحكم الابتدائي واستئنافه والشروع من جديد في التحقيق

وهذه كلها ضمانات تكفل العدل مع أن العقوبة قاسية . ولكن عبد الرحمن فضل لم يحاكم ولم يدافع عنه محام ولم تطلب منه بينة أو شهود . وإنما كل ماحدث أنه كتب عنه تقرير سرى عملت به الحكومة لحرمته من الرعوية المصرية بناء عليه . وهل يمكن إنسانا أن يحرم من رعويته وأين يكون وأين يذهب ؟

يكون فى الحال التى فيها عبد الرحمن فضل « المصري » الذي يتصدق عليه ربان الباخرة اليونانى . وهذا المصرى يراه المسافرون كل يوم ويسألونه عن الحال الذى هو فيها ويعجبون من مصر !

ان كنا نخاف الشيوعية — ويجب أن نخافها — فلماذا لا نحكم على الشيوعيين بالاعدام وننتهى من هذه الفضيحة التى تخجلنا جميعا ؟

لقد جرت علينا الشيوعية ضروبا من الخبل فى التفكير . فاننا قاطعنا روسيا مقاطعة تجارية لا نظن ان خسارتنا منها تقل عن عشرين أو ثلاثين مليون جنيه . اذ فى الوقت الذى كنا نبحث فيه عن أسواق للقطن ونرجو زيادة بضعة قروش فى ثمن القنطار لكى نخفف عن المزارعين عبء الديون العقارية كنا نقفل مختارين هذه السوق الروسية . مع أن روسيا كانت تستطيع أن تشترى منا كل عام بما يبلغ ثمنه ثلاثة ملايين جنيه من القطن فاذا حسبت هذا فى مدة ١٥ سنة من هذه المقاطعة عرفت مقدار الخسارة التى عادت علينا من القطن فقط

وماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن روسيا استقدمت من مصر — أجل من مصر — المستر براون الخبير الزراعى فى وزارة الزراعة المصرية فسافر اليها وعلم أبناءها : زراعة القطن . وهم يزرعونه الآن وقد استغنوا عن قطننا

فانظر إلى مقدار الخبل الذى وقعنا فيه سواء فى مأساة عبد الرحمن فضل أم فى مأساة زراعة القطن . والمسئول عن هاتين المأساتين هو الوزارات الاستبدادية الماضية وذلك لأنها كانت تجعل من الشيوعية تكأة تتكىء عليها لايقاع الرعب فى بعض الجهات العليا حتى تبقيها على الدوام فى كرامى الحكم خشية أن تفور البلاد فورة شيوعية دامية

ولنا الآن وزارة أمينة شريفة تعرف الحقائق . فعليها واجب محتوم هو إزالة الخبل الذى ركب عقولنا طول هذه السنين الماضية وذلك بالغاء المقاطعة للتجارة الروسية والغاء القانون الذى يحرم أبناء البلاد من رعويتهم المصرية . ولا بأس من أن نجعل العقوبة لجريمة الشيوعية قاسية ولو الى حد الاعدام

كنيسة وقسيسها

فى رشيد كنيسة أثرية . وكل مافى تلك المدينة أثرى جوامعها ومنازلها ونيلها وأهلها أيضا كنيسة أشبه بكهف تائهة بين المنازل البالية المحيطة بها لايكاد يعلن عن وجودها شىء فى ذلك الزقاق الضيق الذى يصب فى سوق الخضر برشيد ، فمدخلها الخارجى مشابه لمداخل سائر المنازل المجاورة لها

قادنا اليها ، وكنا جمعاً من الأصدقاء فى زيارة المدينة ذات التاريخ القديم ، ساكنها شيخ أسمر الوجه أشيب اللحية تدل تجاعيده على قلب طيب ونفس سمحة ، مرتد رداء أسود نافضا كثرت فيه البقع ، ووضع على رأسه قبعة عالية تعلق بها زغب الحمام الرفيع وكساها الغبار بطبقة تكاد تغطى سوادها فبدت كأن العنكبوت قد نسج عليها خيوطه وبدا الرجل فى مجموعه أثرا من الآثار

هذا هو قسيس الكنيسة وساكنها الوحيد ولو بعث اسكندر دوماس وشاهده لكان يدهش إذ يرى « أبى فاريا سجين جزيرة ايف » قد خرج من كتابه « كونت دى مونت كريستو » مفضلا عالم الحقيقة على عالم الخيال

سرنا وراء القسيس الشيخ ومن حولنا صبية الحى ينادونه « يابونا » عارضين خدمهم فيبتسم هو شاكرا راضياً مغتبطاً بالمحبة التى يحوطه بها أهل الحى ، ووصلنا إلى باب فى زقاق يبدو كأنه مخلوع ولكن لم يمكننا الدخول منه إلا بعد أن فتحه القسيس بمفتاح ضخم بيد مرتعشة فما ولجناه حتى صفق سرب من الحمام بجناحيه طائرا وجرت الدجاجات فى الساحة الصغيرة هنا وهناك وهربت القطط إلى مخابئها وبقى كلبان أو ثلاثة كلاب شرسة واقفة تنظر الينا شزرا ولم تهدأ إلا بعد أن طمأنها سيدها

دخلنا الكنيسة من باب ضيق منحنى الرءوس قسرا ، فاذا بها أشبه بمغارة لاتتسع لأكثر من عشر أنفس وتناثرت هنا وهناك صور القديسين وشمعدانات محطمة ولوحات رخامية منقوشة باليونانية وفى الداخل مذبح جميل بالرغم من قدمه

أما أرض الكنيسة فعلى طبيعتها . ومشهدها بالاجمال يثير الرهبة والخشوع ويزيد ذلك الشعور رائحة البخور الذكية التى عبق بها جو الكنيسة الصغير

وخرج القسيس ومد يده الى جيبه فاخرج حباً من الفول وفرقه على الاخوان فبسطوا به أيديهم فتساقط مئات الحمام الأليف لالتقاط الحب

فكان منظرا ذكر البعض بميدان سان مارك فى البندقية وحمامه المشهور . وكانت مقارنة ذات وقع بين هذه الساحة الحقيرة وكنيستها الصغيرة وبين ميدان سان مارك الفسيح وكاندرائيته العظيمة

تنظر فى وجه الشيخ فتأخذك دلائل الرضى والغبطة المرتسمة عليه وتشعر بأن هـذا الشخص الفانى سعيد فى حياته . انه سعيد حقاً فى صداقة حمامه ودجاجه وكلابه وقططه ، سعيد بتقواه ومحبة جيرته . انه يكاد يمثل فى حياته فلسفة الحياة

تجرى يدى بكتابة هذه الكلمة ، ولا أعرف الى أية غاية أوجهها . غير أنه اذا لم يجد القارىء لها هدفا فليحسبها خبرا مثل سائر الاخبار كعودة كبير أو تكريم موظف . أو . . .

على أنى واثق من أن ذاك القميص الشيخ لن يسره كثيرا ترديد ذكره فى العالم الصاخب واقلاق معيشته الرياضية الهنيئة فى كنيسته الصغيرة ووسط أصدقائه الوفيين دائما . . .

صداقة الوالدين للابناء

لكل فرد منا ـ رجلا كان أم امرأة ـ معارف وأصدقاء . تجمعنا بهم ظروف الحياة فنعرفهم ثم نألفهم ونجد فى طباعهم ومشاربهم مايلائم طباعنا ومشاربنا ، وفى ميولهم وعقلياتهم مايوافق ميولنا وعقلياتنا ، فنصادقهم ونطمئن اليهم . وتتوثق بيننا وبينهم عرى الألفة والود ، فنعاملهم معاملة الند للند ونصطفيهم من دون الناس ، ونستشيرهم فى أمورنا ونطلعهم على دخائلنا ، ونواسيهم وقت شدتهم ، وننتظر منهم المثل وقت شدتنا . وقد تندمج شخصياتهم بشخصياتنا ، فنعمل بيد واحدة ، ونفكر بعقل واحد . ولانستطيب مجلساً غير مجلسهم ، ولانستعذب حديثاً غير حديثهم ثم نحن نراهم كل يوم فلا نمل ولا نسأم ، واذا غابوا افتقدناهم ، وشعرنا بما يتركون فى نفوسنا وحياتنا من فراغ . وكذلك نحن نحاول جهدنا أن نقرب بين أصدقائنا المتباعدين ، ونجمع بين أصحابنا المتفرقين ، حتى تنتظم منهم حلقة متآلفة متوافقة ، وتتكون منهم عائلة متحابة متضامنة نرى أنفسنا ننسلخ بالتدريج — من غير قصد — عن أهلنا وأقربائنا لنندمج فيها ، ولو حسبت مقدار مايقضيه الرجل من وقت فى مقهاه وناديه بين اخوانه وأصدقائه وما تصرفه المرأة فى زيارات لأحبائها وصديقاتها لوجدت تغيب البيوت والحياة العائلية — منا ومنها — لايكاد يذكر — وقد يطول مدى الصداقة عشرات السنين حتى ليصبح الصديق يعرف عن صديقه أكثر مما يعرف عنه أهله وأولاده وأقرباؤه الأقربون . ونحن معشر المصريين لانفترق فى هذا عن الغربيين . بل لعلنا أسرع منهم تعارفا وتفاهما ، وأطول عشرة وأكثر اخلاصاً لأصدقائنا . ولكننا ننقص عنهم فى شىء واحد أراه من أكبر أسباب التربية الحقة وأقوى دعائم الجماعة عدمه ، ومن أكبر معاول الهدم للبيوت وتفكيك روابط الاسرة عندنا وهو صداقة الأبوين لأولادهما والأخوة والأقارب بعضهم للبعض الآخر

فالأب هناك يتخذ من ابنه صديقا — بكل مافى هذه الكلمة من معنى — فيصاحبه ويجالسه ويثق به ويطمئن اليه ويستشيره فى أموره ، ويقف منه على قدم المساواة اذا مابلغ الحلم . وكذلك تتخذ الام من ابنتها صفية مخلصة ، تبادلها الرأي والنصيحة من غير تعنت أو املاء . ولذلك تراهم يقضون جل أوقاتهم فى بيوتهم ، ينعمون بالحياة العائلية الهادئة أكثر من نعيمهم بحياة المجتمع الصاخبة . وهل يجد الانسان صديقاً يخلص له ويطمئن اليه أكثر من أبيه واخوته ؟ وهل تجد البنت صديقة وفية تحرص على كرامتها وتعمل على رفع شأنها فى غير حسد أو ضغينة أكثر من أمها وأخواتها . أما نحن فى مصر فنخص غير أهلنا بعطفنا ، ونضع ثقتنا فيمن تقذف بهم الاقدار فى طريقنا وتربطهم أعمالهم بنا . أما أقاربنا وأخواتنا فليس لهم علينا غير مجرد أداء الواجب والزيارات الرسمية عند المناسبات

ولذلك ينشأ الولد بعيداً عن حجر والديه ، غائبا عن مجتمعهم . حتى اذا بلغ أشده جرفه تيار المجتمع . فانصرف عن البيت ودائرة العائلة ليكوّن له مجتمعاً آخر وعائلة ثانية . وهكذا ينقسم البيت الواحد دوائر ومجتمعات قد لا تجتمع فى مرة من المرات ، الوالدان فى واد ، والابناء فى واد ، فلا يعرف الواحد شيئا عن الاصدقاء الآخرين ومعارفهم ، إلا كما يعرف الكمساري راكب الترام . ويصبح الاهل كسكان البنسيون يحيى بعضهم البعض فى الصباح . ولا يلتقون إلا على موائد الطعام . وهذا هو سر انحلال الأسرة وفساد الاخلاق وعلة خمود أقوى الغرائز الانسانية وأسمى العواطف والنزعات

ولعل الذى يدفع بالشرقيين الى هذا المسلك الشاذ ــ الذى ينافى الطبيعة ويخالف أبسط قواعد العمران ــ هو مادرجوا عليه وألفوه طوال السنين من تربية وطنية منزلية محاطة بسياج التقاليد ، وقيود النظم الجامدة التى تجعل من الاب السلطان المطلق والدكتاتور المستبد الذي يقبض على دفة البيت بيد من حديد . فاذا يده كالسوط وصوته كالرعد . اذا مشى قاموا وقوفا خاشعين واذا تكلم ظلوا صامتين . واذا ما أكل قاموا بين يديه . هذه تحمل القلة وهذه تقدم الصحون ، وهذا يصب الماء على يديه ، وذاك يبادر بالمنشفة . فاذا ما انتهى تجشأ وتمطى وقام الى فراشه ليستريح أو الى السلاملك أو المنظرة ليستقبل الضيوف والزوار من المعارف والاصدقاء . كأنه فى البيت غريب عن أهله وساكنيه . لا يؤاكلهم فى مائدة ولا يخالطهم فى مجلس . فاذا أدب أولاده أخذهم بالعنف والشدة تحت ستار الادب والنظام ، واذا أحسن كان احسانه مشوباً بالفتور وعطفه ضرباً من المجاملة وقد يكون فى مجلسه الخاص عالماً أديباً ومجرباً حكيما ، ثم لا يستفيد أولاده من أدبه وعلمه ولا ينتفعون من حكمه وتجاربه . هذه هى السنة التى درج عليها معظم البيوت فيما مضى .

ولا أحسبنى مبالغاً فى تقديرها ولا مهولا فى تصويرها . فما زلنا إلى الآن نرى أبناء البيوت القديمة المحافظة على تقاليدها المتمسكة بهـا — ولو كانوا كبارا فى السن والمقام ، وأرباب أسر وعائلات ، يقفون أمام آبائهم موقف الخشوع الذى لامعنى له لايبـدون رأيا فى شىء ولايظهرون استحسانا لشىء . ولايشربون القهوة ولا الماء ، بل هم لايجلسون فى حضرتهم ولو كانوا أكبر منهم مقاما وأغزر علماً وأعلى مرتبة من أصدقاء والديهم ، وقد يستفتى الأب الأمى الفـلاح صديقا له امياً مثلا فى أمور قضائية أو وصفة طبية ، ولايسأل ابنه المحامى أو الطبيب كأنه لايزال صغيرا قاصرا — أو « ابن امبارح » كما يقولون — ولا أبالغ ان قلت أن الكثيرين من آباء الريف لاينقون فيما تلقاه أولادهم من علم ولايعترفون لهم بخبرة أوسداد رأى وهكذا جرى المثل «مزمار الحى لايطرب»

هذا لون ألوان التربية المنزلية تغرنا منه مظاهر الطاعة المموهة والاحترام الـكاذب ، ولـكنه يقتل فى أولادنا شخصيتهم ويشل تفكيرهم ويولد فى نفوسهم الخوف من تحمل المسئولية ومجابهة الصعاب ، وينزع منهم ثقتهم فينا ويجعلهم عالة علينا أن كانوا ذوى شخصيات ضعيفة بطبيعتها . ابحثوا عنهم تجدوهم موظفين خاملين خاضعين يقبلون الضيم ويصبرون على الأذى ليس لهم كرامة يدافعون عنها ولا مبدأ يتمسكون به — وتجاراً أو صناعا أو زراعا يقنعون فى عيشهم بالقليل عن جبن لا عن ايمان لايستغلون مافى بلادهم من موارد ولايساهمون فى مشروع — وهم جميعا يتحركون كالظلال ليس بها روح ، يعيشون ويموتون نكرات لايؤبه لهم ولايقام لهم وزن . واذا كانوا ذوى شخصيات قوية بطبيعتها كظموا غيظهم فى صدورهم على مضض ، حتى اذا ازداد الضغط انفجروا وانقلبوا علينا وعلى البيت والمجتمع ، وصاروا ثائرين متبرمين بالحياة ساخطين على الدنيـا . وكم من ولد نشأ على الطاعة العمياء والنظام القاسى الشديد فصار مستهتراً لايعرف نظاما وهو كبير . وكم من طفل قتر عليه والداه ووقفوا فى سبيل « غياته » فاذا بلغ سن الرشد وورث المال بدد ما آل اليـه من ميراث . ولو كنا أخذناهم من صغرهم بالحلم واللين وأشركناهم معنا فى أمورنا وفتحنا لهم مجالسنا وأدمجناهم فى زمرتنا حتى يتشربوا بمشاربنا ويقتربوا من ميولنا واتخـذنا منهم أصـدقاء صغارا ، لزالت بيننا وبينهم القيود وقربت مسافة السن ، واستطعنا أن نبث فيهم روح الهمة والنشاط وان كانوا مستكينين ونلطف من حدتهم ونهدىء من ثوراتهم ان كانوا متمردين — حتى نصلح لزمانهم ويصلحوا لزماننا . ووالله لقد صدقت العامة فى أمثالها — ان كبر ابنك خاويه . فالأطفال احوج الى من يفهم نفسياتهم ويعطف عليهم ويأخذ بيدهم فى الطريق الوعر الذى هم عليه مقبلون — وخصوصا فى دور البلوغ . فهم وقتئذ فى دور ثورة وغليان آل اليه ، وغريزة كانت ناعسة فتنبهت من غير سابق انذار وعاطفة تتفتح كالزهرة فى الاكمام ، وعيون تزول عنها الغشاوة ونفس متعطشة الى العلم

والمعرفة وسؤال المجربين . كلنا نعرفها ونذكر ما كنا عليه فيها ونقدر خطرها في أولادنا كما جربنا خطرها في أنفسنا . ونحن مع ذلك نحيطها بشيء من الغموض والابهام فنفضحها من حيث نريد أن نسترها وتدفعنا تقاليدنا التي أحطناهم بها والسد المنيع الذى أقمناه بيننا وبينهم الي أن نتركهم لرحمة الاقدار ، يصادقون من يشاءون ويخالطون اخوان السوء ويرتبطون معهم بأسوأ الروابط ويقتبسون منهم أسوأ العادات . حتى اذا وقع المحظور واندفع أولادنا فى التيار الجارف ، مددنا أيدينا لهم فجرفونا معهم أو جلسنا ننظر اليهم يتدهورون واضعين رأس الجهل على يد الندم

اصلاح القرية

أول درجات العمل صدق النية فى القيام به . وقد توافرت النيات للاصلاح القروى عند رجال الوزارة الوفدية فليس من شك فى أننا قادمون على اصلاحات متوالية تتناول بناء القرية ونظامها وموقعها . وليس شك فى أن الوزارة الحاضرة قد وضعت الاساس لطائفة من الاصلاحات . وهي لن تستطيع التراجع عن تنفيذها بل هى ورطت غيرها فى هذه الاصلاحات فلن يمكن وزارة أخرى أن تكف عنها اذ هى تعرض نفسها عندئذ للاستنكار العام

وأعظم ما نحتاج اليه فى انفاذ خطة الاصلاح التى سنتها الوزارة الوفدية الا تقدم على مشروعات الا بعد الثقة التامة من صلاحها وضرورتها مع تقديم الاهم على المهم . وهناك كثير من العطف والحنان فى الكلام عن الفلاحين وقراهم ومساكنهم ولكن هذا العطف وهذا الحنان يجب ألا يعميانا عن التفكير السليم المنطقى فى الاصلاح المنشود

فهناك مثلا مسألة مياه الشرب . فاننا كتبنا كثيرا عن هذا الموضوع وعالجناه في تحنن وعطف وتحسر . ولكننا لم نسلط عقولنا ومنطقنا عليه . ولو فعلنا لعرفنا ان مياه الشرب التى يشربها الفلاحون ليست سيئة . فان الفلاحين يستقون من مياه النيل الجارية . وهم يشربونها عكرة أو مرشحة . وهى فى كلتا الحالين ليست سيئة الطعم ولا مؤذية للجسم . فان عكر المياه هو الطين الذى يجفف ويستعمل أحيانا دواء للامساك . وهو ليس متعفنا وليست به قذارة . وقد عاش آباؤنا آلاف السنين وهم يشربون هذا الماء عكراً أو مرشحا ولم تنشأ عنه أمراض بينهم

وانما الذى يدعو الى الكلام الكثير عن ايصال المياه المرشحة الى منازل الفلاحين هو

الاعتقاد الراسخ بأن مرضى البلهارسيا والانكلستوما ينشأ ن من مياه الشرب . وهذا وهم عظيم لا أصل له فى الحقيقة ، فان هذين المرضين ينشآن من دودتين مختلفتين تدخلان الجسم من الجلد أى من السير بلا حذاء فى القنوات المعشبة التى لا تجف على طول العام تقريبا . ولهذا السبب لا يكاد هذان المرضان يعرفان فى الصعيد الاعلى حيث لا يمارس الرى الدائم بل يقتصر على رى الحياض ، فان الجفاف الذى يعقب هذا الرى يقتل هاتين الدودتين ولا يصاب الفلاحون بهما مع ان هؤلاء الفلاحين يشربون مياه النيل العكرة التي نعتقد أنها هي الاصل لهذين المرضين

وتفشى هذين المرضين يرجع الى نظم الرى الجديدة التي جعلت أرض الوجه البحرى وبعض الوجه القبلى متشبعة بالمياه طول العام مع بقاء هذه المياه راكدة فى القنوات التى لا تجف

ولهذه الديدان سلسلة من الحياة اذا انقطعت حلقة منها بالجفاف ماتت ، فالسبب الاصلى هو تشبع التربة المصرية وهذا السبب نفسه هو أيضا الاصل لكثرة الديدان التى تصيب القطن وتحدث الملاريا بوفرة البعوض الذى ينقل مكروبها

فالدعوة الي اصلاح مياه الشرب هو عبث واضاعة للمجهودات والاموال . وقد اقترح أحد الاطباء فى مديرية المنوفية أن تترك مياه النيل على حالها ويعطى الفلاحون أحذية عالية الى الركبة حتى لا تصيبهم الديدان من الارض الرطبة أو من القنوات الموحلة

وهذا الاقتراح معقول . ولكن خيرا منه أن تجفف التربة المصرية فلا يسمح بتاتا بالرى الا عن طريق الآلات الرافعة . ويجب أن يبقى مستوي مياه الرى دون الارض التي يرويها بمتر أو أكثر من ذلك . واذا جفت الارض ماتت الديدان وعادت الى الفلاحين صحتهم ولو شربوا مياه النيل العكرة